جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بإيتاي البارود

شعر الصعلكه بين القدماء المحدثين

"دراسة موضوعية"

دكتور

عبد الحافظ عبد المنصف خليف

أستاذ الأدب والنقد المساعد - كلية اللغة العربية
فرع جامعة الأزهر بالمنوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه ....."وبعد".

فقد نشأ الصعلوك القديم فى عصر فرضت المعيشة الطبيعية القاسية والطبيعة القاحلة على قومه نمط الحياة الجماعية للدفاع والغزو وتأمين الطعام والحماية، هذه الحياة جعلته يحمل مسؤولية المعيشة فردا، مستغنيا بشىء من التمرد غريبا فى دمه عن كل نوع من أنواع الضمانات داخل حياة الصحراء، ومع وحشها وفيافيها المجدبة المرملة، وتلقاه عداوة الإنسان والطبيعة معا، وجعلت منه أيضا فارسا لليأس، وبطلا للحرية خارج المجتمع، وعدوا للتقاليد التى تسوى بين الناس فى الظلم والفقر والمهانة، ولا تسوى بينهم فى القيمة والغنى والكرامة.

وإذا كانت الحياة على اختلاف أشكالها تعطى الإنسان الحق فى التطلع إلى ما هو أعلى وأسمى، وتعطيه الرغبة فى التغيير والتجديد حسبما يجيش داخله من آمال وطموحات وآراء وفلسفات، فإن معنى ذلك: أن الصعلكة ظاهرة مستمرة مع اختلاف مظاهرها وأشكالها خاضعة لسنن التطور والاختلاف، وعلى ذلك، فصعاليك العصر الحديث متمردون، ثائرون على الفقر، وعلى اختلال السلم الاجتماعى، وعلى وجود من لايستحقون منصبا ولا جاها فى الأماكن التى يستحقها غيرهم، وعلى عدم اهتمام المجتمع بصاحب الموهبة الذى يتوهج بشرارة الإبداع، والذى له من فنه وشاعريته وأدبه ما يقدمه على الآخرين، واضطراره إلى مذلة الطلب والسؤال ومهانة الاحتياج.

وهنا يأتى السؤال التقليدى: لماذا اخترت هذا الموضوع للبحث؟

والحقيقة: أنى اخترت هذا الموضوع الذى لم تتوافر عليه جهود من الباحثين حتى تجعل منه موضوعا واضح المعالم، نير الطريق، مثل غيره من الموضوعات التى أصبحت واضحة مجتمعة الجوانب للأسباب الآتية:

أولا: أن هذه الصعوبة التى تكتنف موضوع هذا البحث، وذلك الضباب الذى يعتم بعض جوانبه، كانا أهم ما دفعانى إلى اختيار الموضوع، لأنني أرى من العبث أن يبدد الباحث جهده فى موضوع فرغ منه الباحثون أو كادوا، وأنه من العبث أن يترك الباحث موضوعا يمكن أن يأتى فيه بجديد بشىء من الجهد، والموضوع فى حاجة إلى هذا الجهد.

ثانيا: وقع اختيارى على هذا الموضوع بعد طول نظر فى الأدب الحديث الذى أصبحت دراسته غايتنا التى نجد فيها متاعنا، ونتاج مبدعيه واحتنا التى نستمد منها فيئنا.

ثالثا: من الدراسات التى كانت مصدر امدادنا بفكرة هذا البحث، تلك الدراسة التى قام بها أستاذنا الدكتور "**محمود عباس**" بعنوان "وحى الأطلال فى إبداعات المعاصرين"، والتى نشرت فى حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، فى العدد السابع عشر لسنة ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م، وفيها أثبت أستاذنا الدكتور: أن فكرة الأطلال القديمة ما زالت مسيطرة على الشعراء حتى فى عصرنا الحديث، وبعد قراءتى لها أكثر من مرة، قلت فى نفسى: إذا كانت فكرة الأطلال ما زال صداها يسمع حتى الآن، فإن وحى الصعاليك مازال دويه أكثر رنينا، وخاصة عندما تصفحت كثيرا من نتاج مبدعينا من أمثال: "**حافظ إبراهيم**"، "**وعبد الحميد الديب**"، "**ومحمد الأسمر**"، "**وعلى محمود طه**"، "**وزكى مبارك**".... وغيرهم.

وكان أساس المنهج لبحث هذا الموضوع: أن أبدأ بحقيقة الصعلكة فى القديم والحديث، ثم وجوه الاتفاق والاختلاف بين الصعاليك القدامى والمحدثين، وذلك لأن صعاليك العصر الحديث ليسوا فئة تقطع الطريق، وتستاق الإبل، وتنهب الأغنياء لحساب الفقراء، وجعلت هذا الموضوع تمهيداً، وذلك لبناء البحث كله على فهم الصعلكة، وعلى تأثيره في بقية البحث الذى هو: "**شعر الصعلكه بين القدماء المحدثيين دراسة موضوعية**".

وفى المبحث الأول: تحدثت عن أثر الصعاليك القدامى فى المحدثين فى وصف الديار، فإذا كان الصعلوك القديم قد دفعه الفقر الى سكنى الجبال والقفار والأماكن التى يخشى غيرهم ارتيادها، فإن الحديث قد دفعه السبب نفسه إلى سكنى القبور، والأماكن الموحشة المقفرة المتهالكة بجوار الحشرات القاتلة.

وكان **المبحث الثانى** عن "الاغتراب". الذى دفع الصعلوك القديم إلى الانفصال عن الواقع بحثا عن الرزق وعن الذات المفقودة، وأدى بالصعلوك الحديث إلى العزلة والانطواء لأنه لم يتفق مع بيئته، واستشعر هوة عميقة بينه وبين الآخرين، فانفصل عن المكان دون أن يفقد اتصاله به، وانسلخ من الزمان هروبا إلى زمان أفضل من وجهة نظره.

وجاء "**المبحث الثالث**" عن الشكوى، التى جاءت معبرة عن آلامهم الخاصة، ولكنهم لم يغضوا الطرف عن آلام الآخرين.

وفى "**المبحث الرابع**": تحدثت عن "شعر السجون"، فقد وصف كل منهما قسوة السجن، وظلم السجان، وما يعانيه كل منهم داخل السجن من القيد والتنكيل ليلا ونهارا.

وفى "**المبحث الأخير**". تحدثت عن شعر "النقد الاجتماعى" مبينا مفهومه، وأنواعه عند كل منهما، ثم كانت الخاتمة وفهرس المصادر والمراجع ختاما لهذا البحث.

"وبعد"... فلست أزعم لنفسى أننى قد أحطت بموضوعى علما، أو سددت منه كل ثغرة، ولكن هذا جهدى واجتهادى.

ويعلم الله (ﷻ) أنى لم أدخر جهدا، ولم أقصر عن غاية كان يمكن بلوغها، فإن أكن قد وفقت فهذا ما أرجوه، وإن كانت الأخرى فحسبى.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب

الباحث

" التمهيد "

١- مفهوم الصعلكة فى القديم والحديث.

٢- وجوه الاتفاق والاختلاف بينهما.

مفهوم الصعلكة

من الواجب على الباحث أن يحدد المفاهيم الرئيسة التى يدور عليها بحثه، وانطلاقا من هذا أجد لزاما على أن أحدد مفهوم الصعلكة.

فالصعلوك فى اللغة هو: "الفقير الذى لامال له... وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك، قال حاتم طيئ:

غنينا زمانا بالتصعلك والغنـــى * فكلاً سقاناه بكأسيهما الدهـــــر

فما زادنا بغيا على ذى قرابـــة * غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقــر

وتصعلكت الإبل: خرجت أوبارها، وانجردت وطرحتها، ورجل مصعلك الرأس: مدوره"(١)

وللصعلكة فى الأدب معنيان: قديم، وحديث.

أما فى القديم: فيقول الدكتور "يوسف خليف": "إن الصعلوك هو الفقير الذى يواجه الحياة وحيدا وقد جردته من وسائل العيش فيها، وسلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه فى مواجهة مشكلاتها، فالمسألة إذاً ليست فقرا فحسب، ولكنه فقر يغلق أبواب الحياة فى وجه صاحبه، ويسد مسالكها أمامه"(٢).

ثم يذكر لها معنى آخر يراعى فيه الظروف والنواحى الاجتماعية، فيقول: "وأما الدائرة الاجتماعية فتتسع وتبعد عن نقطة البدء لتنتهى، أو لتحاول أن تنتهى بعيدا عنها، يبدأ الصعلوك فقيرا، ثم يحاول أن يتغلب على الفقر الذى فرضته عليه أوضاع اجتماعية أو ظروف اقتصادية، وأن يخرج من نطاقه

---

(١) لسان العرب- ابن منظور – مادة صعلك – دار المعارف.

(٢) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى – ص٢٣- دار المعارف- الرابعة – ١٩٨٦م.

ليتساوى مع سائر أفراد مجتمعه، ولكن – من أجل هذه الغاية – لا يسلك السبيل التعاونى، وإنما يدفعه عدم توافقه الاجتماعى إلى سلوك سبيل الصراع، فيتخذ من الغزو والإغارة للسلب والنهب وسيلة يشق بها طريقه فى الحياة، فيصطدم بمجتمعه الذى يرى فيه هذه الفوضوية الفردية مظهرا من مظاهر التمرد، وتنقطع الصلة بين المجتمع والصعلوك، فيتخلى المجتمع عنه، ويحرمه حمايته، ويعيش الصعلوك خليعا مشردا، أو طريدا متمردا حتى يلقى مصرعه، فأما أعداؤه فقد استراحوا من هذا الفزع الذى كانوا يترقبونه فى كل حين، كما يترقب غائبا منتظرا أهله، وأما أصدقاؤه فقد سقط أحدهم فى سبيل فكرته بعد أن أدى رسالته فى الحياة"(١).

أما الدكتور "**عبد الحليم حفنى**" فيقدم تعريفا آخر للصعلكة يقول فيه: "هو احتراف السلوك العدوانى بقصد المغنم، ويعنى الاحتراف ملازمة العمل الذى يشبه الحرفة، من حيث استمراره ومن حيث كونه العمل الأساس فى حياة صاحبه، والمورد الأساس لمعيشته ورزقه أيضا، ووضعه فى التعريف – أى الاحتراف – ليخرج الذين يزاولون أعمال الصعلكة ولكن فى غير صورة الاحتراف، كغارات بعض القبائل على بعض، وكمزاولة بعض الأفراد لأعمال الصعلكة فى غير احتراف"(٢).

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى – ص٦٠.

(٢) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه الفنية – ص٣٨– الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٩م.

مفهوم الصعلكة فى العصر الحديث :

واختلف مفهوم الصعلكة فى العصر الحديث عن سابقه، فلم يعد الصعاليك فئة تقطع الطريق، وتنهب الأغنياء لحساب الفقراء، بل أصبحوا فئة مثقفة واعية يضيقون بالأغنياء لا لغناهم، ولكن لأوضاعهم المتميزة فى المجتمع بسبب ثرائهم فقط.

والصعاليك يغشون مجالس السمر، ويتبسطون فى الحديث، لدرجة الخروج على الآداب أحيانا، ولا يعيرون الآخرين فى ذلك اهتماما.

يقول الأستاذ "محمد فهمى عبد اللطيف": "كانوا جيلا من أهل الأدب والفن، يمكن أن نسميهم فلاسفة، ويمكن أن نقول إنهم صعاليك، وكانوا يعيشون على طريق الحياة تجمعهم الميول المتوافقة والطبائع المتشابهة، والروح الفنية المنطلقة، والنظر إلى هذه الدنيا فى اتجاه واحد وعلى بعد واحد، وكانوا بطبائعهم أهل تحرر وتحلل، يضيقون بتلك الأوضاع والقيود التى يفرضها الناس على أنفسهم فرضا فى الحياة، وبذلك النفاق الاجتماعى الذى يتكلفونه تكلفا ممقوتا سمجا فى أمورهم العامة والخاصة، حتى فى سلوكهم مع أنفسهم، وبينهم وبين ضمائرهم، وكانوا يحبون الحياة واضحة صحيحة بعيدة فى سيرها عن التكلف والتصنع، ويتمنون لو يكون الناس فى سلوكهم واضحين صرحاء، فلا يشقون على أنفسهم، ولا يشقونها بذلك النفاق البغيض الثقيل، وبذلك التمويه الكاذب المخادع الذى لايجعل للحياة طعما ومذاقا، ولا يجلب على النفس الا الكآبة والعناء....وكانوا أعداء لذلك الشىء الزائل الذى يسميه الناس "المال" ويرونه مادة السعادة فى الحياة، فكانوا لايحفلون بهذا المال فى كثير ولا قليل، وإذا طلبوه أوسعوا اليه، فلأجل أن يقتلوه إسرافا وتبذيرا وليكونوا سادة عليه لا أرقاء عليه"(١).

---

(١) فلاسفة وصعاليك – ص٥– الدار القومية للطباعة والنشر – د.ت.

من خلال ذلك يمكن أن نقول: "إن صعلوك العصر الحديث، إنسان مرح متحرر يرفض القيود والنفاق الاجتماعى، ويعشق الصراحة ويؤمن بقيمة الصحبة والحرية، ويرفض سطوة رأس المال التى تعطى صاحبها امتيازات وأفضليات لمجرد كونه غنيا، صاحب رأى ومذهب، ينظر إلى الحياة على ما عرف من أمرها، وما خبر من حقيقتها."

وجوه الاتفاق والاختلاف بينهما

أولا: وجوه الاتفاق

يمكن أن نقول: إن الصعاليك القدامى والمحدثين يتفقون فى الأمور الآتية:

أولا: التمرد والخروج على المجتمع، ورفض الأوضاع الجائرة، ذلك التمرد الذى منح الصعلوك شجاعة خارقة، وقدرة أسطورية من أجل استرداد الحقوق.

ثانيا: التعبير عن مشاعر الآخرين، ونقد المجتمع، والسخرية من بعض نماذجه.

ثالثا: الاهتمام بالرفقة والحرص على استمراريتها.

رابعا: التمرد على السلطة، حيث إن الصعلكة والسلطة الحقيقية المتمكنة لا يتفقان.

خامسا: الإحساس بالغربة، التي كانت سبباً في عدم اتفاقه مع بيئته واستشعاره هوة عميقة بينه وبين الآخرين، مما جعل الصعلوك القديم يستبدل الوحوش بأهله الذين قسوا عليه، وأدى بالصعلوك الحديث إلى الانفصال عن ذاته، وعن مفردات الوقت، فلم يعد يرى الأشياء على طبيعتها.

ثانيا: وجوه الاختلاف

واختلف الصعلوك القديم عن الحديث فى الأمور الآتية:

أولا: الصعلوك القديم قاطع طريق، أما الحديث، فهو رقيق الحس والمشاعر يحركه الإحساس بالانعزال داخل مجتمعه، هذا الانعزال النابع من رغبته فى إعادة التوافق مع الآخرين.

ثانيا: صعلكة القديم سلب ونهب، أما الثانية. فهى صعلكة فن وفكر وظرف وفكاهة.

ثالثا الفقر: اختلفت نظرة كل منهما إلى الفقر، فالفقر جعل الناس تهرب من الصعلوك القديم وتتخلص منه كأنه مرض أو لعنة حلت عليهم كما عند "عروة".

ودفع الحديث إلى لعن الزمن، وسب الأغنياء، وطلب الموت والسخط على الأمة، كما عند "حافظ ابراهيم"، "وعلى محمود طه".

رابعا: شعر الصعاليك القدامى مغاير للشعر القديم فى نسقه المألوف المساير للتقاليد والصنعة معا، أما الصعلوك الحديث فشعره مساير لعصره وروحه فى آن واحد.

خامسا: الصعلوك القديم يستاق الإبل وينهب الأغنياء لحساب الفقراء، أما الحديث فيضيق بالأغنياء لا لغناهم ولكن لأوضاعهم المتميزة فى المجتمع بسبب ثرائهم فقط.

المبحث الأول

وصف الديار

إن أرض الجزيرة العربية يغلب عليها الطابع الجبلى الصحراوى، وهذه الطبيعة تخلق حصونا طبيعية لأبنائها، تحميهم حينما يطلبون الحماية، وتخفيهم حينما يطلبون الخفية.

وعلى الرغم من نشأة الصعاليك في أماكن قريبة من الخصب، فقد كانوا يفضلون دائما أن يكونوا فى كنف هذه الطبيعة الصعبة المنال، فنجدهم يألفون الجبال والقفار والأماكن التى يخشى غيرهم ارتيادها.

"فتأبط شرا" يتحدث عن هذه الديار وسط الجبال، والطرق الوعرة التى لا يستطيع أحد أن يسلكها أو يعبرها، فيقول:

وشعب كشل الثوب شكس طريقه * مجامع صوحيه نطاف مخاصـــــر(١)

به من سيول الصيف بيض أقرهـا * جبار لصم الصخر فيه قراقـــر(٢)

تبطنته بالقوم لم يهدنى لـــــــــه * دليل ولم يثبت لى النعت خابـــر(٣)

به سملات من مياه قديمـــــــــة * مواردها ما إن لهن مصـــــــادر(٤)

---

(١) الشعب- الطريق فى الجبل، وشل الثوب- الطريق الذى يصعب اجتيازه، الصوحان – جانبا الوادى، ونطاف – جمع نطفة وهو ما يجتمع من ماء المطر فى موضع، مخاصر باردة.

(٢) بيض، غدران، أقرها، تركها، جبار- سيل، قراقر، أصوات.

(٣) تبطنته- دخلت فى بطنه وسرت فيه، خابر، المختبر والمجرب.

(٤) الديوان – ترجمة وتحقيق – عبد الرحمن المصطاوى – ص٤٥ – دار المعرفة للطباعة والنشر – الثانية-٢٠٠٦م.

وشبيه بذلك قول "**عروة بن الورد**":

و غـبراء مخَـشيٍّ رداهـا مخوفـة * أخوهـا بأسـباب المنايـا مغـرر(١)

قطعت بها شك الخـلاج و لم أقـل * لخيابـة، هيابـة، كيـف تـأمر؟

وإذا كان الصعاليك القدامى قد وصفوا ديارهم المقفرة الموحشة، فإن ديار الصعلوك الحديث تشبه ــ إلى حد كبير ــ ديار أساتذتهم القدامى.

يقول "الشرنوبى" مصورا مسكنه فوق ربى المقطم المهجور، فوق الحصى و الطين و الصخور:

هذا أنا فـــى العالم الكبير * فوق ربى المقطم المهجـــور

متخذا مـــن أرضه سريرى * من الحصى و الطين و الصخـور

و تحـــت سقف الأفق المطير * و العاصف المزمجر المقـــرور

أنام نـــوم العاجز الموتور * على نباح الكلب و الهريـــر

و قهقهات الرعد فى الديجور * تسخر من عجزى و من قصوري

و مـن ضراعات إلى المقدور * و قلبى المحطم الكســـير(٢)

و يأتى منزل "**عبد الحميد الديب**" مرآة صادقة لتشرده و صعلكته التى أوصله إليها فقره، و نستشف ذلك من وصفه لحجرته التى سماها "جحر الذئب"، و التى لا تصلح لإقامة إنسان، يقول:

---

(١) ديوانا عروة والسموأل– تقديم– عبد الحى دياب– دار الكتاب العربى– القاهرة – د ت.

(٢) الديوان – ص٤٩٨– تقديم– عبد الحى دياب – دار الكتاب العربى– القاهرة– د ت.

أفى غرفتى يا رب أم أنا فى لحدى؟ * ألا شد ما ألقى من الزمن الوغـــــد

و هل أنا حى أم قضيت ؟ و هـذه * إهابة إسرافيل تبعثنى وحـــــــدى

لكم كنت أرجو غرفة فأصبتها * بناء قديم العهد أضيق من جـــــدى

فأهدأ أنفاسى يكاد يهدهـــــا * و أيسر لمس فى بنايتها يـــــــردى

أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها * فأرجله أمضى من الصارم الهندى

تساكننى فيها الأفاعى جريئـــــة * وفى جوها الأمراض تفتك أو تعدى

ترانى بها كل الأثاث فمعطفـــى * فراش لنومى أو وقاء من البـــــــرد

و أما وسادتى بها فجرائـــــــد * تجدد إذ تبلى على حجر صـــلد

تعلمت فيها صبر"أيوب" فى الضنى * وذقت هزال الجوع أكثر من "غاندى"(١)

ولعل منزل "عبد الحميد الديب" يشبه منزل كثير من الصعاليك فى العصر الحديث، ومن ذلك ما يطالعنا به الشاعر العراقى "أحمد الصافى النجفى ١٨٩٧-١٩٧٧م" بوصف غرفته التى يقطنها قائلا:

أكابد البرد فى ســـــراج * يكاد من ضعفه يمـــــوت

فى غرفـــة ملؤها ثقوب * قل ملؤها بيـــــــوت

يسكن فيهـــــا بلا كراء * فأر وبق وعنكبـــــوت

(١) الصعلوك الساخر وشعره المجهول عبد الحميد الديب – محمد رضوان – ص٢٤٢ – دار الكتاب العربى الأولى – ٢٠٠٥م.

للفأر مـــــن مأكلى غذاء * والبق جسمى لديه قـــوت

واعتزل العنكبوت أمرى * وفى بقاه معى رضيـــــت

فكان يسكن فى "دمشق" فى غرفة فى مدرسة الخياطين مهجورة، لايتعدى أساسها فرشة ممدودة على الأرض، وكمية من الصحف القديمة، وحقيبة كرتونية مربوطة بحبل، وكان يشاطره فيها: فأر وعنكبوت وقبائل من البق"(١).

وهكذا تشابه وصف الديار عند الصعاليك القدامى والمحدثين، فالصعلوك القديم يفضل الديار المقفرة الموحشة الصعبة المنال، ويفخر بوصوله اليها دون دليل أو هاد يهديه.

أما الحديث فقد أذله الفقر والتشرد وظلم المجتمع له إلى سكنى القبور، والأماكن الموحشة المقفرة المتهالكة بجوار الحشرات القاتلة.

---

(١) موسوعة الشعراء الصعاليك من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث – د. حسن جعفر نور الدين – ٢-٤٧٢ – دار رشاد برس للطباعة والنشر – بيروت-١٤٢٨-٢٠٠٢م.

المبحث الثانى

"الاغتراب"

والاغتراب فى اللغة العربية، مشتق من غرب ومثله الغربة، وغلبت عليه دلالة النزوح عن المكان، حيث جاء فى لسان العرب أن: "الغربة والغرب: النزوح عن الوطن والاغتراب"(١)

ومن ثم صار الاغتراب عند العرب يمثل عذابات الشوق والحنين للوطن عند الإنسان وعند الحيوان على السواء أيا كانت الأسباب التى دفعته إلى الغربة، كما كان عند "**زهير بن أبى سلمى**"، "والصعاليك"، "**وعدى بن زيد**" فى العصر الجاهلى، "**وأبى فراس الحمدانى**" فى العصر العباسى، والبارودى "**وأحمد شوقى**" فى العصر الحديث.

وقد تحقق الاغتراب عند الصعلوك القديم، فقد تأثر بما حوله من مسببات أدت إلى محاولة الانفصال عن الواقع بحثا عن الذات المفقودة، ووصولا إلى أعلى درجة من درجات السعادة حينما تملك الذات أمرها دونما اعتماد على الآخرين، ونرى ذلك عند "عروة" فى قوله:

لحا الله صعلوكا إذا جن ليلـــــه * مصافى المشاش آلفا كل مجـــزر(٢)

يعد الغنى من دهره كل ليلـــــة * أصاب قراها من صديق ميســـــر

قليل التماس الزاد إلا لنفســـــه * إذا هو أمسى كالعريش المجـور(٣)

---

(١) ابن منظور– مادة غرب – دار المعارف.

(٢) المشاش، رءوس العظام اللينة، والمجزر، موضع الجزر.

(٣) العريش: خيمة من خشب، والمجور: الساقط.

يعين نساء الحى ما يستعنـــــــه * ويمسى طليحا كالبعير المحسر([1])

ينام عشاء ثم يصبح ناعســـــا * يحث الحصى عن جنبه المتعفـــــــر

ولكن صعلوكا صفيحة وجهـــه * كضوء شهاب القابس المتنـــــور

مطلا على أعدائه يزجرونـــــــه * بساحتهم زجر المنيح المشهـــــر([2])

إذا بعدوا لا يأمنون اقترابـــــــه * تشوف أهل الغائب المتنظـــــر([3])

ونلحظ فى الأبيات السابقة عدم الرضا عن الواقع الذى يعيشه الصعلوك لأنه واقع مزر، فهو لا ينام كالبشر، ويظل يبحث عن طعام فى أماكن ذبح الإبل، وإن أراد النوم لم يجد الفراش الذى ينام عليه ويكتفى بالنوم على الحصى، ومع هذا فإن ذلك لم يمنعه من عمل الخير ومساعدة النساء فى قضاء حوائجهن بالنهار، ليعود إلى بيته فى المساء مكدودا مليئا بالحسرات، لاسيما وقد علم بموقف أبناء المجتمع منه، الذين يستقبلونه استقبال الموت حين يرونه قادما، حيث يزجرونه ولا يأمنون اقترابه.

وهذا الموقف يترك فى نفسه أثرا سلبيا ضد المجتمع من جهة، وضد نفسه من جهة أخرى، فهذا التصرف الذى يمر به يجرح كبرياءه، ويحطم كرامته المستقرة فى ذاته، ولذا فإنه يفضل الموت بديلا عن هذه الإهانة التى تلحقه.

فـــذلك إن يلـــق المنيـــة يلقهـــا * حميـــدا وإن يـــستغن يومـــا فأجـــدر

---

(١) يمسى طليحا: عاجزا، والمحسر: البعير المذل الخاضع.

(٢) المنيح: قدح مستعار سريع الخروج والفوز، والمشهر: المشهور.

(٣) الأبيات من قصيدة "أقلى اللوم"– ديوانا عروة والسموأل – ص٣٥.

ومع ذلك ظل مخلصا لمبادئه وكرامته، فلم يخضع للأغنياء ولم يتطفل على موائدهم، بل ظل نائيا عنهم، محافظا على شرفه من الدنس الذى ربما لحقه لتعويض الفقر بالغنى، ولهذا فإنه استبدل الموت أو الغنى بهذا الوضع، وفى سبيل سعيه اليهما لم يخسر شرفا أو كرامة، ولذا فهو ينطلق من يقين راسخ بأن ما يفعله هو الصواب.

فسر فى بلاد الله والتمس الغنى * تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا(١)

"**والشنفرى**" يتمنى أن يرتحل عن أهله، وينطلق إلى صحبة سواهم من وحوش البرية، أو زملاء الصعلكة، فقد استعد للسفر، واختار الوقت المناسب وهو: الليل المقمر الكاشف للطريق، واستعاض عن أهله بمصاحبة الوحوش فى البرارى، يقول:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكـــــم * فإنى إلى قوم سواكم لأميـــــــل

فقد حمت الحاجات والليل مقمـــر * وشدت لطيات مطايا وأرحـــــل

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى * وفيها لمن خاف القلى متعـــــزل

لعمرك ما في الأرض ضيق على امرىء * سرى راغبا أو راهبا وهو يعقـــل

ولى دونكم أهلون سيد عملـــس * وأرقط ذهلول وعرفاء جيـــأل(٢)

---

(١) الديوان – ص٤٤– من مقطوعة بعنوان "سر فى بلاد الله".

(٢) شعر الشنفرى الأزدى – لأبى فيد مؤرج بن عمرو السدوسى– ص٦٦– ت – د. علي ناصر غالب– مراجعة د. عبد العزيز المانع – دار اليمامة للبحث والطباعة – الأولى– ١٩٩٨م.

ويفخر "تأبط شرا" بصداقته للوحوش وملازمته لها حتى ألفنه، على مصاحبته للإنسان الظالم الذى يتمنى موته، يقول:

"يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه * ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا

رأين فتى لاصيد وحش يهمه * فلو صافحت إنسا لصافحته معا(١)

وتأثر الصعلوك الحديث بأستاذه القديم فى الاغتراب وتغنى كثيرا فى شعره بذلك، ومن هؤلاء الشاعر "**محمد مصطفى حمام**" الذى "يعد من الأدباء البائسين، إلا أنه كان لايحمل حقدا أو موجدة على غنى أو ذى مال أو نشب، فإن نال من خيرهم شكر وقدر، وإن لم ينل حمد الله ودعاه"(٢).

وإذا كان "عروة" قد اغترب سعيا وراء الرزق عندما قال لزوجته:

" دعينى للغنى أسعى فإنى * رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعدهم وأهونهم عليهم * وإن أمسى له حسب وخير

ويقصيه الندى وتزدريه * حليلته وينهره الصغير

ويلفى ذو الغنى وله جلال * يكاد فؤاد صاحبه يطير

قليل ذنبه والذنب جم * ولكن للغنى رب غفور(٣)

---

(١) الديوان – ترجمة وتحقيق – عبد الرحمن المصطاوى – ص٩٠.

(٢) ديوان حمام – ص٥ – من المقدمة بقلم – العوضى الوكيل – ط– الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.

(٣) من مقطوعة بعنوان "للغنى رب غفور" ديوانا عروة والسموأل– ص٤٥.

فإن "حماما" قد ألجأه الفقر وذل الاحتياج إلى السفر طلبا للرزق أيضا، يقول:

إلى الكويت شددت الرحل مغتربا * وما أزال غريب الدار مرتحلا

نأى بى الرزق عن أهلى وعن ولدى * مستسلما لقضاء الله ممتثلا(١)

وإذا كان الصعلوك القديم قد تحدث عن الاغتراب المكانى وتأثر به الصعلوك الحديث، فإننا نجد المصطلح قد تطورت دلالته فى العصر الحديث تبعا لتطور الزمن والبيئة، وأصبح يعنى: "حالة الفرد الذى يكون – نتيجة لظروف خارجة عن إرادته، اقتصادية أو دينية أو سياسية – قد انقطع عن الانتماء لنفسه أو عن الشعور بأنه المتصرف فى نفسه، وهذا المفهوم الذى شاع فى الأدب العربى الحديث، وفى علم الاجتماع وعلم النفس (عند تحليل الإنسان العصرى) مستمد أصلا من فلسفة هيجل"(٢).

فالاغتراب إذاً: حالة تعني ابتعاد الشاعر عن مظاهر الحياة دون الانفصال عنها وعن جوانبها المادية، كما تعنى اقترابه من المجردات والروحانيات بما يعكس حالة من حالات رفض الواقع.

ومن هذا المعنى يطالعنا الصعاليك المحدثون وهم يصورون قسوة الاغتراب على نفوسهم، فعندما يستشعر الصعلوك قسوة اغترابه فى المدينة، فإنه يبحث عن مخرج لتلك الأزمة، فلا يجد غير البيئة البديلة التى تتمثل فى القرية أو المنبت.

---

(١) الديوان– ص١٠٩.

(٢) معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب – مجدى وهبة ص٣١– بيروت – الثانية– ١٩٨٤م.

يقول "**زكى مبارك**" متذكرا القرية – سنتريس– التى شهدت مولده وصباه:

" ليـالى النيـل واللـذات ذاهبـة * وجدى علـيكن أشـجانى فأضـنانى

لو يرجع الدهر لى مـنكن واحـدة * فى سـنتريس ويـدنى بعـض خلانـى

إذن تبـين دهـرى كيـف يرحمنـى * من ظلم همى ومن عدوان إخوانى(١)

و"**حسن جاد**" يقارن بين حالته فى القاهرة وحالته فى دمياط، التى شهدت مولده ومراتع صباه، فيقول:

"تذكرت يا دمياط عهدك ناضرا * فلله عهد بالبشاشة ناضـــــــــــر

قضيت بها فجر الصبا الغض يافعا * وقد زينته من شبابى الباكـــــــــر

فيالك عهد طاب لى فيه مـــــورد * فلا البؤس غلاب ولا الجد عاثر"(٢)

فيذكر الشاعر أن كل ما وجده فى القرية من الفرح والسعادة، يقابله حزن وبؤس فى القاهرة، حيث البؤس الغالب والحظ العاثر.

وفى المعنى نفسه يطالعنا "**محمد الأسمر**" وهو يتذكر المدينة نفسها – دمياط– التى ولد ونشأ فيها قائلا:

"أرضى وأرض لداتى كم جريت بها * طفلا يعيث فسادا بين أطفـــالى

لى بين جنبى قلب خافق أبـدا * لمن بدمياط فى حل وترحـــــال

---

(١) ديوان ألحان الخلود – ص١١٨– دار الكتاب العربى – مصر– ١٩٤٧م.

(٢) ديوان زورق الشجون – ص٩٩– المطبعة المصرية الأهلية الحديثة – القاهرة– ١٩٣٥م.

عشرون عاما قضيناها بها حلمـــا * كأنما هى لم تخطر علـــــــى بال

يابلدة فى رياض اليم مطلعهـــا * مازال يشجى فؤادى عهدك الخالى

أردد الطرف فى شمس وفى قمر * على رباك وآرام وأشبـــــــالى

أستودع الله قوما ماتركتهـــــم * الا الى حيث آلامى وأمـــالى(١)

وإذا كانت النماذج السابقة تبين لنا أثر الاغتراب المكانى فى حياة الصعاليك، فإن هناك نوعا آخر من الاغتراب وهو: "الاغتراب الزمانى"، الذى يقول عنه الشاعر "**إبراهيم نجا**": "وتجاربى لا تنبع إلا من تجربتين كبيرتين هما: الحب والغربة.....وكما عرفت الحب فى وقت مبكر، عرفت الغربة أيضا.....تغربت فى العاشرة عن أهلى الأعزاء، ولداتى الأحباء، وملاعب طفولتى ومراتع صباى، وعشت مع من لايفهمون أحلام نفس رقيقة، ولا يسمعون نبضات قلب معذب"(٢).

فتدلنا هذه العبارة على أن الشاعر كانت له غربتان، أولاهما غربة المكان، حيث ترك أهله ومكان ميلاده، ولعبه صغيرا، وأخراهما – غربة الروح أو غربة الزمان، وهى التى لا ينسجم فيها الانسان مع واقعه الأليم على نفسه.

ويطالعنا "نجا" وهو يصور الغربة الزمانية، فيقول:

آه كم يغلبنى الحزن وكم * تستبد الوحشة الكبرى بحسى

حينما أمضى مع الناس سدى * وإذا أبقى وحيدا مع نفسى

---

(١) ديوان تغريدات الصباح – ص١٧– دار المعارف – القاهرة– ١٩٤٦م.

(٢) من مقدمة ديوان أيام من عمرى – ص٥ – دار المعرفة – القاهرة – ١٩٦٢م

ومقيما بين أهلى هاهنـــــا * وغريبا بين آلامى ويأسى(١)

والاغتراب الزمانى يجعل الشاعر يرى تبدل مظاهر الحياة والطبيعة من حوله، يقول "على محمود طه":

"وأصخت للنسمات وهى هوازج * فسمعت قصف العاصف المجنون

يا صبح ما للشمس غـير مضيئة * يا ليل ما للنجم غير مبيـــــن؟(٢)

فاغتراب الشاعر جعله ينفصل عن ذاته وعن مفردات الوقت فلم يعد يرى الأشياء على طبيعتها.

ونلمح نوعا آخر من الاغتراب عند الصعاليك المحدثين يمكن أن نطلق عليه "الاغتراب النفسى"، وفيه ينفصل الشاعر عن ذاته، كما نرى عند "محمود أبى الوفا"، وهو يرى قلبه موشكا على الهلاك إلا أنه يتمسك بحشاشة الروح، وذلك فى قوله:

"ذبيح صدرى بصدرى الآن مختنق * أو موشك بين نيران ودخـــــــــان

كأن أصداءه والنار تحرقـــــــه * والموت يغرقه فى لونه القانـــــــــى

تقول يارب إن كان الذبيح فــدى * فاجعل ذبيحى فدى أهلى وجيرانى(٣)

---

(١) من قصيدة أحلامى الضائعة – السابق ص٧٠.

(٢) الديوان– ص٢٢– دار العودة – بيروت –١٩٨٦م.

(٣) ديوان محمود أبو الوفا "دوواوين شعره ودراسات بأقلام معاصريه" ص١٩١– الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٧م.

فالشاعر مهموم بقضايا بلده، ووجود الاستعمار "بمصر" هو سر شعوره بالاغتراب، وشعوره بأن قلبه منفصل عنه، والشاعر لاينفصل عن المجموع ولكنه يتمنى لو كان فدى لأهل مصر.

وفى قصيدة "اللحن الأخير" للشاعر "**إبراهيم نجا**"، يطالعنا فيها الشاعر وهو يصور وحشة الغربة وكآبة الحياة التى مزقت نفسه لأنه لم يتفق مع واقعه، فنفسه متمردة على المجتمع من حوله، ولو كانت حياته سهلة مطمئنة كما كان يهوى لملأ الدنيا بغناء الحب، ولكن لأنه غريب شريد فقد دفن أفراحه فى قبر قلبه فضاعت أمانيه، يقول:

آه لكنـى شريـد.....وغريـب فى حيـاتى

ماتـت الأفـراح فى قلبـى فماتـت أغنيـاتى

وطغى اليأس على عمرى فغـشى أمنيـاتى

فتعللت من الدنيا بطيف الـذكرياتى(١)

وهكذا، كان الاغتراب على اختلاف أنواعه مظهرا من مظاهر العزلة والانطواء توفر للصعلوك حياة يرضاها، مادام لم يتفق مع بيئته ويستشعر هوة عميقة بينه وبين الآخرين، فينفصل عن المكان دون أن يفقد اتصاله به، وينسلخ من الزمان هروبا إلى زمان أفضل من وجهة نظره، وينفصل كذلك عن ذاته، كما أن الاغتراب يمكن الصعلوك من محاولة إعادة التوافق بينه وبين المجتمع وما فيه من ناحية، وبينه وبين نفسه من ناحية أخرى.

---

(١) ديوان أغنيات الحب – ص٩٥– دار الكتاب العربى – ١٩٦٨م "نشر وزارة الثقافة".

المبحث الثالث

الشكوى

وفن الشكوى ليس جديدا على أدب العصر الحديث بل يمتد إلى العصر الجاهلى، فقد اشتكى الشعراء من الزمن والحياة بصورة عامة والسخط عليهما من أوسع أبوابهما.

ففى العصر الجاهلى تقابلنا شكوى "**طرفة بن العبد**" من قبيلته، وذلك فى قوله:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة * على النفس من وقع الحسام المهند(١)

ويدعو "**بشار بن برد**" إلى الإغفاء عن هفوات الصديق لعلمه أنه لم يجد الخليل الذى خلا من الهنات، فيقول:

إذا كنت فى كل الأمور معاتبـــــا * صديقك لم تلق الذى تعاتبـــــــه

فعش واحدا أو صل أخاك فإنـــه * مقارف ذنبا مرة ومجانبـــــــــه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه؟(٢)

واستمرت شكوى الشعراء إلى العصر الحديث، ولكنها تعددت واختلفت مناحيها، فمن الشعراء من شكا المشيب وبكى عهد الشباب على شاكلة قول البارودى":

أين أيـــــام لذتى وشبابى؟ * أتراها تعود بعد الذهابـــــــى؟

---

(١) الديوان – ص٣٦– دار صلدر – بيروت.

(٢) الديوان– ص٨٠– شرح – محمد الطاهر– تعليق– محمد رفعت فتح الله – ط– لجنة التأليف والترجمة والنشر – ١٩٥٠م.

ذاك عهـــد مضى وأبعد شيء * أن يرد الزمان عهد التصابى"(١)

أما عند الصعاليك فكانت من أكثر الموضوعات التى دار حولها شعرهم، وهى كثيرة ومتنوعة.

ويأتى "الفقر" فى مقدمة الشكوى عند الصعاليك القدامى، فالصعلوك القديم يفضل الموت على حياة "الفقر" التى تجعله محتقرا منبوذا من مجتمعه، مجفوا من أقاربه، فالموت فى هذه الحالة خير من الحياة.

يقول "عروة":

إذا المرء لم يبعث سواما ولم يرح * عليه ولم تعطف عليه أقاربـــــــــه

فللموت خير للفتى من حياته * فقيرا ومن مولى تدب عقاربه(٢)

وفى المعنى نفسه يقول "أبو النشناش":

"فلم أرَ مثل الفقر ضاجعه الفتى * ولا كسواد الليل أخفق طالبـــــــه

فعش معدما أو مت كريما فإننى * أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه(٣)

ونلمح مثل هذه المعانى عند صعاليك العـــصر الحـــديث، فيقـــول "حـــافظ ابراهيم" فى قصيدة "سعى بلا جدوى":

"سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما * وعدت وما أعقبت إلا التندمـــــــا

لحى الله عهد القاسطين الذى به * تهدم من بنياننا ما تهدمـــــــــــا

---

(١) الديوان -١-٥٤- ت- على الجارم – محمد شفيق معروف- دار المعارف – دت.

(٢) ديوانا – عروة والسموأل – ص٤٥.

(٣) موسوعة الشعراء الصعاليك – ٢-١٤٥.

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم * فلا تك مصريا ولا تك مسلمـــــا

سلام على الدنيا سلام مـــــودع * رأى فى ظلام القبر أنسا ومغنمـــا

أضرت به الأولى فهام بأختهـــا * فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما

فهبى رياح الموت نكبا وأطفئى * سراج حياتى قبل أن يتحطـــما

فما عصمتنى من زمانى فضائلـى * ولكن رأيت الموت للحرأعصما(١)

فالشاعر يبين لنا أنه سعى فى كل الاتجاهات، وكافح كفاحا شاقا فى كل المجالات حتى تقرحت قدماه من أثر السعى على الرزق ولكن كل ما حوله جديب مقفر.

وفى إطلاق الجملة الفعلية "سعيت" دلالة على أن الشاعر سعى سعيا واسعا مما يهيىء الذهن أنه لم يجد منفذا إلا وطرقه.

وقد اختار الشاعر للتعبير عن ذلك السعى الدائب والعمل الشاق والرغبة الملحة، والإصرار الزائد فى سبيل الوصول إلى الهدف، هذا الأسلوب الكنائى وهو: كما نرى كناية بليغة إلا أن الشاعر خفف منها باستعمال الآداة "كدت"، ثم يلخص الشاعر نتيجة السعى فى الشطر الثانى من البيت فيقول: إنه ما عاد بعد كل هذا السعى والكفاح إلا بالندم.

وقد وفق الشاعر فى اختياره للتعبير عن جنى ثمار تعبه ومجهوده بلفظة "التندم" التى تشعر بالاستمرارية المطلقة لتجرع الندم رشفة بعد أخرى، وخاصة إذ لحظنا دور "تاء الافتعال" فى طلب المزيد.

---

(١) الديوان – ص٤٢٨– ضبطه وشرحه ورتبه – أحمد أمين وآخرون – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الثانية – ١٩٨٠م

ثم يبين الشاعر السبب المباشر لمعاناته والذى يتمثل فى سوء عهد الغاصبين وصنائعهم، فبدأ بما يدل على شدة حقده وكراهيته لهذا العهد ممثلة فى جملة خبرية لفظا إنشائية معنى، تحمل الدعاء على تلك المدة التى تكاثرت فيها معاول الهدم، وتكاتفت على تصدع المجتمع تصدعا عنيفا لم تقم له قائمة بعده.

و قد عبر الشاعر عن فساد هذا النظام الداخلى بقوله: "تهدما.....ما تهدما" الذى هو علامة على الاختلال والاهتزاز وعدم الأمان، بل التساقط والضياع.

فلفظة "تهدم" بمساحتها الصوتية توحى بعنفوان الهدم و شدته، كما أنها تجسد بجلاء الشكل الذى كان عليه البنيان ثم صار إليه.

و يستكمل الشاعر حديثه عن المدة المشار إليها وما فيها من مظالم فيقول:

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم * فلا تك مصريا و لا تك مسلما

والشاعر بهذا الحكم إنما ينقل صورة للمجتمع الذى يعيش فيه و ما يلوح فيه من مفارقات.

فالمستعمرون وصنائعهم يعيشون فى سعادة متمتعين بخير البلاد، بينما حرم الشرفاء ــ وهو منهم ــ من أن يذوقوا طعم الراحة والهناءة.

فيقرر أن من يبتغى العيش سعيدا بينهم لا بد أن يتجرد من أغلى ما يمتلك؛ بل من كل ما يمتلك، فأى شىء يبقى للإنسان بعد أن يتجرد من دينه ووطنيته؟

هذا هو العراء بعينه، فيا لها من حسرة، ويا لها من مرارة أحس بها الشاعر.

ثم يلتفت إلى الدنيا ساخطا عليها سوء فعلها معه، ويعلن تمرده على الأقدار، بل يصرح تصريحا واضحا لا لبس فيه، عزمه على الوداع و الرحيل، فلقد قتله اليأس، و قضى عليه الفشل، وعذبه انهيار الوطن، فآثر القبر بوحشته و ظلمته بل وجد فيه "أنسا و مغنما".

و قد أخذ عليه هذا الاستسلام السريع و اليأس المميت، و تمنيه حياة القبر ولقاء الموت "الدكتور "**عبد الرحمن عثمان**" فقال: "فما هى إلا صولات قلائل من الزمن و القاسطين حتى يلقى "**حافظ**" سلاحه و يسقط فى المعركة، ومن ثم تضامت جوانب القصيدة وانطوت على نفسها، فاختلفت فى كزازاتها الأفكار التى كان ينبغى أن تصول فى رحابها و تجول"(١).

ثم تتضح نظرة الحزن المسيطرة عليه، فقد بلغ به اليأس حدا جعله يتوق إلى رياح الموت، ويدعوه لمواجهته وملاقاته.

فهبى رياح الموت نكبا و أطفئى * سراج حياتى قبـــــل أن يتحطما

فهو لا يخشاه بل يستدعيه بعد أن أصبحت حياته عبثا، و موقدا هزيلا يتأرجح من ضعف إذا هبت عليه الريح، وقد جاءت "الفاء" المقترنة بفعل الأمر "فهبى" لبيان طلب سرعة هذا الأمر و الحث عليه.

أما تشخيص الرياح هنا فقد أعطى تجسيدا للمعنى، كما أن إضافتها للموت فى قوله: "رياح الموت" يوحى بالإعصار الشديد المهلك الذى لا يبقى و لا يذر، ولا يدع لأى مظهر من مظاهر الحياة من أثر.

وينهى الشاعر هذا المشهد الأليم بالحسرة اللاهفة على نفسه، فيقول:

فما عصمتنى من زمانى فضائلى * و لكن رأيت الموت للحر أعصما

فالشاعر ما كان يحب هذه الفرقة و ذلك الرحيل، و لكن يعزى نفسه بأنه لم يقبل على الموت ضعفا أو خورا، و لكنه ذو مروءة وشرف، و لذا رأى فى الموت عصمة له من الحياة.

---

(١) الشاعر "عبد الحميد الديب" حياته و فنه ــ ص ٢٥٤ ــ دار المعارف ــ سنة ١٩٦٨م.

وهذا الموقف يكشف عن مأساته وفداحتها، فقد زاد من حنقه وألمه أنه تزين بالأخلاق الشريفة والمثل العليا النابعة من وحى نشأته وبيئته، ولكن فضائله قعدت به عن السير فى القافلة العامة، ولم يشفع له تميزه فى أن يعيش حيا ة كريمة.

ويعبر "الديب" عن الفكرة نفسها، فيقول مخاطبا المولى (ﷻ):

خذنى إذا ما المال أمسى عسيرا * فالموت خير مـــن حياة الفقير

الشاعر الموهوب يحيا فقيـــــرا * وما لـــه فى شعبه من نصير(١)

فالشاعر لايتحدث عن فقره وحده فقط، بل يتحدث عن جميع الصعاليك الفقراء، ولذا أتى بكلمة الفقير فى البيت الأول معرفة على سبيل الإضافة، وأداة التعريف تفيد العموم للدلالة على كل الفقراء، وجاءت نكرة فى البيت الثانى على سبيل الحال لتصور حياة الديب التى تقتصر على الفقر، وهو يضاعف مرارة إحساسه بفقره، والجمع بين الكلمتين تعريفا وتنكيرا يوحى بأن "**الديب**" يستشعر مصاب غيره من الفقراء، فدعوته ليست لذاته فقط، ولكنها لغيره ممن على شاكلته.

ويعبر الصعلوك عن الفقر بصورة أخرى، فيذكر ثيابه الممزقة، ونعليه القديميين، يقول الشنفرى:

فبت على حد الذراعين مجذيـــــا * كما ينطوى الأرقم المتعطـــف(٢)

وليس جهازى غير نعلين أسحقت * صدورهما مخصـورة لا تخصف(٣)

---

(١) الصعلوك الساخر عبد الحميد الديب وشعره المجهول – ص٥٥.

(٢) مجذيا وجاذيا: أى ثابتا وقائما، والأرقم: ذكر الحيات.

(٣) أسحقت: بليت، وتخصف: تخرز بالمخصف، والمخصف: مخرزة الحذاء.

وملحفةٍ درسٍ وجـــــــرد ملاءةٍ * إذا أنهجت من جانب لا تكفف(١)

فالشنفرى يعبر عن حاله من الفقر والإعياء، فيقول: إنه يسعى لا يملك شيئا غير ملحفة بالية، وملاءة خلقة قصيرة إذا شدَّتها على جسده من جانب، تعرى من جانب آخر، ونعلين تمزقا لم يستطع خصفهما.

ونرى صدى هذه الفكرة عند الصعاليك المعاصرين، يقول الديب:

يا محنة أكل الشقاء شبيبتى * فيها وهجنت الخطوب عريقى

ولبست باليها بعرسى مكرها * وشربت آسنها عتيق رحيق(٢)

فثياب الفقير ثياب بالية يرتديها فى كل الأوقات سواء كان حزينا أم سعيدا إذ لا يملك غيرها.

ويقدم "الديب" صورة جديدة لثياب الفقير، وهى أن الثوب يمتلىء بالنوافذ، فيقول:

ثيابى كمصطاف الغنى نوافـــذا * ومشتى الفقير ابن السبيل هشيما

ولى غرفة كالقبر لم تحو أرضهـــا * سوى أســـــاس كالهباء قديما(٣)

فالثوب يمتلىء بالنوافذ، ولا يجد ما يرتق به الثوب، مما دفعه إلى مرارة الإحساس بثوبه البالى.

وإذا كانت ثياب "الشنفرى" ممزقة لا تغطى جسده، وثياب "الديب" مليئة بالنوافذ، فإن "الشرنوبى" يلبس ممزق الستور، يقول:

---

(١) شعر الشنفري الأزدى: ص١٥٥.

(٢) الصعلوك الساخر وشعره المجهول – ص٦٨.

(٣) المصدر السابق – ص٩٠.

"إنى هنا ياجنة الحقـــــــير * آكل جوعى وأضـــــــم نيرى(١)

وليس لى فى الأرض من نصـير * إلا ضميري آه من ضميري

ألبسنى ممزق الستـــــــور * وجاء بى حيا الى القبـــــــــور

.....

هذا أنا فى العالم الكبـــــير * فوق ربا المقطم المهجـــــــور

متخذا من أرضه سريـــرى * من الحصى والطين والصخـــور(٢)

والصعلوك القديم يرى أن الفقير من أشر الناس ومنبوذ منهم ولا وجود له بينهم، يقول "عروة":

"دعينى للغنى أسعى فإنـــى * رأيت الناس شرهم الفقـــــير

وأبعدهم وأهونهم عليهـــــم * وإن أمسى له حسب وخير(٣)

ويقصيه الندى وتزدريـــــــه * حليلته وينهره الصغـــــير(٤)

ويطالعنا "الديب" وهو يذكر الفكرة نفسها، فيقول:

"كأنى بين الناس لعنة جيلهـــم * فمن شمت منه العيش أوسعنى رفضا

ويحتال حتى ما يفرج كربتـــى * إذا عيى بى كلا يجرحنى بعضا(٥)

---

(١) النير- الثوب مجازا.

(٢) الديوان- ص٢٣١- تقديم – عبد الحى دياب.

(٣) الوخير – الخير والشرف.

(٤) ديوانا عروة والسموأل- ص ٤٩.

(٥) الصعلوك الساخر وشعره المجهول – ص٢٩٠.

فالديب دفعه احساسه بفقره إلى أن يرى نفسه منبوذا بين الناس ولا وجود له بينهم، فالناس تهرب من الفقير وتتخلص منه كأنه مرض أو لعنة حلت عليهم.

ومن أبرز آثار الفقر التى اشتكى منها الصعلوك القديم وظهرت بصورة واضحة عند المعاصرين، "الجوع"، ففى شعرهم صورة مؤلمة لما كانوا يعانونه من الجوع القاسى الذى يتعرضون له كثيرا، والذى بلغ من تعودهم عليه واستعدادهم لاستقباله دائما أن راضوا أنفسهم على مقاومته.

ويطالعنا من الصعاليك القدامى "تأبط شرا" وهو يصور أثر قلة زاده وما ترتب عليه من ضعف جسمه وبروز عظامه، والتصاق أمعائه من الجوع، فيقول:

"قليل ادخار الزاد إلا تعـــــلة * فقد نشر الشرسوف والتصق المعا(١)

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه * ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا(٢)

وإذا كان الجوع قد أدى "بتأبط شرا" إلى بروز عظامه ونحول جسده، فإنه قد بلغ "بالسليك " حالة من الضعف جعلته يشعر بالدوار وإظلام البصر حين يقف، فى وقت الصيف الذى يخصب فيه الناس، يقول:

"وما نلتها حتى تصعلكت حقبة * وكدت لأسباب المنية أعـــــــرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى * إذا قمت تغشانى ظلال فأسدف(٣)

---

(١) التعلة– ما يسد من الرمق، والشرسوف: غضروف معلق بكل ضلع، نشر، ارتفع.

(٢) الديوان– ص٦٥– ترجمة وتحقيق: عبد الرحمن المصطاوى.

(٣) الديوان – قدم له وشرحه– سعدى الضناوى – ص٩٠– دار الكتاب العربى – ١٩٩٤م.

"والشنفرى" يعالج الجوع بالصبر عليه وتجاهله ونسيانه حتى ينجح فى التغلب عليه، وإذا لم ينجح فى ذلك فإنه يفضل أن يستف تراب الأرض على أن يمن عليه إنسان بإطعامه، يقول فى لاميته:

"أديم مطال الجوع حتى أميـــته * وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل

وأستف ترب الأرض كى لايرى له * علىَّ من الطول امرؤ متطول(١)

وصعاليك العصر الحديث يعبرون عن الفكرة نفسها، فالجوع يودى "بالديب" إلى التشرد والحيرة فى الأرض ملتمسا رزقه ولو بين السكارى وفاقدى الوعى، عله يجد بينهم من يرق لحاله، يقول:

"من كان يحسدنى فليرتقب سحرا * أنى على الجوع أطوى الأرض حيرانا

ليلتمسنى لدى الخمار يحبســـنى * فى القسم آنا وفى حانوتـــه آنا(٢)

ويقول أيضا:

"ليت العباد كلاب إن كلبتنـــا * لم تزل لحفاظ الود عنوانـــــا

تحملت قسطها فى البؤس صابرة * لم تشك جوعا ولم تستجد إنسانـــا

فالفقر والجوع قد تمكنا من "**الديب**" وأسرته، ولم يجد للتعبير عن جوعه غير الكلاب التى تتصيد طعامها من الطرقات والمخلفات، ولكن ذلك عز على الكلبة فلم تعثر على طعام يسد رمقها وتحملت نصيبها من الجوع ولم تشك

---

(١) شعر الشنفرى الأزدى- ص١٦٠.

(٣) قربان البؤس – الصعلوك الساخر وشعره المجهول – ص١٥٦.

لأحد، وزاوج بين الشكوى والجوع حيث قال: "لم تشك جوعا"، فصارت شكواه بذلك قاصرة على سبب واحد هو الجوع.

"والأسمر" يدلى بدلوه فى الفكرة نفسها، ولكنه يرد جوعه وفقره إلى ضيق رزقه، فيتوجه إلى الله (ﷻ) شاكيا ضيق رزقه قائلا:

"رب يا من خلقتنى أين رزقـــى * كدت يا رب أن أشق الجيوبا

ليتنى كنت فـــــى الكنانة يارب * (م) غرابا ولم أكـــــن عندليبا

طال نظمى سحر القوافى عليها * وإذا بى أعيش فيها غريبـــــــــا

أنت يارب ترزق الإنس والجـــن * (م) جميعا فارزق بمصر الأديبا

إنه كالورى يريد طعامـــــــــا * ولباســـــا ومســـكنا وطبيبـــا

هو عظم كما علمت ولحـــــــم * ليس بالصخر لا يحسن الخطوبا(١)

"فالأسمر" يقرر أن ضيق الرزق استبد به وصار فى حال من الفلس الكامل، كما يرى أن سر نكبته أنه يعمل بالأدب، ويتمنى أن يصير غرابا لأن الغراب – من وجهة نظره– رزقه أوسع من رزق العندليب، وربما يشير هنا إلى أصحاب المهن الأخرى ذات الرزق الواسع وليس لهم حساسية الأدباء وفنهم.

وهكذا جاءت الشكوى عند الصعاليك معبرة عن آلامهم الخاصة، ولكنهم لم يغضوا الطرف عن آلام الآخرين.

---

(١) الديوان – ص٢٦١– نشر– دار Yحياء الكتب العربية – عيسى الحلبى – القاهرة– ١٩٥١م.

وشكوى الصعاليك تمرد سلبى على المجتمع، لأنهم يرون فقرهم واحتياجهم عائقا يحول بينهم وبين امتيازات كثيرة يطمحون إليها، فأشبعوا غضبهم بالشكوى والتبرم لأن "حدة الانفعال تزداد إذا لم يشبع الكائن الحى نشاطه بالطريقة التى يراها"(١)

(١) علم النفس العام – د. عبد الرحمن العيسوى– ص١٤٣–دار المعرفة الجامعية –٢٠٠٠م

المبحث الرابع

وصف السجون

شعر السجون

استخدم الحكام السجون منذ القدم لقهر مخالفيهم فى الرأى والعقيدة، فقد قال الله (ﷻ) على لسان فرعون لنبى الله موسى (عليه السلام): ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.(١)

وقد ارتبط السجن بالصغار والذلة والهوان، ويبدو ذلك من قول امرأة العزيز للنسوة عن سيدنا يوسف (عليه السلام): ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾(٢)، ومن هنا فقد عد سيدنا يوسف (عليه السلام) خروجه من السجن إحسانا من الله – تعالى – عليه، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴿١٠٠﴾ ﴾(٣).

وقد سار حكام بنى أمية على نهج أسلافهم فأنشأوا السجون، وتعقبوا كل مفسد ولص وقاتل ومخالف لمنهجهم وسجنوهم، وأنزلوا بهم ما يستحقون من العقاب، ومن ثم فالصعاليك في نظر الأمويين مفسدون فى الأرض، وخارجين على النظام، فأخذوا يطاردونهم ويلقون القبض عليهم، ويزجون بهم فى السجون، ويسومونهم ألوان العذاب داخل السجن، وقد انتهى السجن ببعضهم إلى

---

(١) سورة الشعراء آية (٢٩).
(٢) سورة يوسف آية (٣٢).
(٣) سورة يوسف آية (١٠٠).

القتل "كجعفر بن علبة "الذى حبس فى سجن المدينة ثم قتل لدم أراقه"(١)، ومنهم من قدر له أن يخرج من السجن "كمالك بن الريب الذى حبس فى سجن مكة لاتهامه بالسرقة"(٢).

وهكذا نال الصعاليك جزاءهم في عصر بنى أمية، وكان الجزاء حبسا أو جلدا أو قتلا، حسب الزنب الذى اقترفه الصعلوك، وغالبا ما يسجل السجين تجربته خصوصا إذا كان من أرباب الفكر والقلم شاعرا كان أو ناثرا، ويقال إن نبى الله يوسف (عليه السلام) كتب على باب السجن: "هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء"(٣).

وقد وصف الصعاليك السجون وما فيها من أصناف العقاب،"فالجر نفس اللص بن عبدة الشاعر بن امرىء القيس من بنى سلامان بن ثعل " يبعث من السجن برسالة إلى قومه يصف فيها حياته، وما يجده فى سجنه فى نهاره من القيد والسلاسل، وما يعانيه فى ليله من ضيق السجن ووحشته، يقول فيها:

"أبلغ بنى ثعل عنى مغلغلة * فقد أتى لك مـــــــن نىء بإنضاج

أما النهار ففى قيد وسلسلة * والليل فى جوف منحوت من الساج(٤)

---

(١) خزانة الأدب – البغدادى – ت- عبد السلام هارون – ٢-٤٦- نشر مكتبة الخانجى – القاهرة- الرابعة – ١٩٩٧م

(٢) الشعر والشعراء – ابن قتيبة – ١-٣٢- مطبعة الحلبى.

(٣) الشهب اللا معة فى السياسة النافعة – لأبى القاسم بن رضوان المالقى – ت- د. سامى على النشار- ص٣٥٩ – دار الثقافة- الدار البيضاء – المغرب- الأولى – ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م

(٤) الحيوان – الجاحظ -٧-١٥٨-دار صعب – بيروت – الثانية -١٩٨٢م.

وإذا كانت رسالة "**الجرنفس**" تعبر عما يعانيه من التعذيب والتنكيل فى سجنه ليلا ونهارا، فإن رسالة "**جحدر بن مالك الحنفى**" التى أرسلها من سجن الكوفة كانت أشد ألما، فهو لايعانى مرارة السجن فحسب، وإنما يحاذر وقع سيف "الحجاج" فيقول: إن الحجاج وإن كان قاسيا، فهو لن يظلمه إذا قتله، لأنه جنى ما يستحق به عقاب "الحجاج"، لذا فهو كئيب حزين، يبكى حاله بكاء مرا، ويحن حنينا جارفا إلى زوجه "**أم عمرو**" إذ تؤرقه خيالاتها التى تراوده باستمرار ويرسل هذه الرسالة مع أخوين له إلى أهله الذين سيزرفون عليه الدموع السجام إذا علموا أنه ينتظر الموت، يقول:

اليس الله يجمع أم عمـــــرو * وإيانـــــا فذاك بنا تدانـــــــى

بلى وترى الهلال كـــــما أراه * ويعلوها النهار كما علانـــــــى

أيا أخوى من جشم بن بكر * أقلا اللوم إن لاتنفعانـــــــى

إذا جاوزتما سعفات حـــجر * وأودية اليمامة فانعيانـــــــــى

إلى قـــــوم إذا سمعوا بقتلى * بكى شبانهم وبكى الغوانـــــى

وقـــولا: جحدر أمسى رهينا * يحاذر وقع مصقول يمانـــــــى

ستبكى كـــــــل غانية عليه * وكل مخضب رخص البنان

وكل فتى لـــــــه أدب وحلم * معدى كريـــــــم غير وان(١)

---

(١) ذكر الدكتور عبد الحليم حفنى ثلاثة أبيات من هذه الأبيات من قوله: إذا جاوزتما...وقولا حجر ونسبها الى جحدر بن معاوية، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه – ص٣١٧، في حين نسبها ياقوت فى معجم البلدان –٢–٢٢٢– إلى جحدر بن مالك الحنفى وذكرها كاملة – ط– دار صادر بيروت ١.

"**وجحدر بن معاوية العلكى**" ت نحو سنة ١٠٠هـ =٧١٨م "قد احترف الصعلكة وسعى وراء الإغارة والسلب والنهب وقطع الطريق، فقبض عليه "الحجاج بن يوسف" وأودعه السجن، ونراه يصور كرهه لسجن الحجاج بالكوفة الذى يشتمل على مجموعة كبيرة من المحبوسين، ويذكر أنهم كانوا يلاقون فيه أقسى ألوان العقاب، حتى لكأن النار التى يتوعد الله (ﷻ) بها المشركين، استمدت لهبها وهولها منه، وكانوا لايفارقونه ولا يهجرونه عنه، ولا تفتح لهم أبوابه أبدا، لذا فهو أبغض بيت عند الله (ﷻ) يقول:

"يارب أبغض بيت عند خالقه * بيت بكوفان منه أشعلت سقر

مثوى تجمع فيه الناس كلهم * شتى الأمور فلا ورد ولا صدر

دار عليها عفاء الدهر موحشة * من كل أنس وفيها البدو والحضر(١)

وقد وصفوا القيود الحديدية وثقلها على أرجلهم، وذكروا ألوانها وأنواعها، وما كانوا يقاسونه منها حتى كانت فى مرات عديدة تبكيهم من شدة الألم، فهذا "**عبيد الله بن الحر الجعفى**" يصف سجنه وسجانه وبابه المنيع، وقيوده السوداء التى كانت مربوطة برجليه والتى كانت ضيقة تشد على قدميه لا يستطيع منها أن يتحرك بسهولة، وذلك فى قوله:

"من مبلغ الفتيان أن أخاهم * أتى دونه باب شديد وحاجبه

بمنزلة ما كان يرضى بمثلها * إذا قام عنته كبول تجاوبه

---

(١) موسوعة الشعراء الصعاليك من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث – د. حسن جعفر نورالدين –٢–١٥٨.

على الساق فوق الكعب أسود صامت * شديد يدانى خطوه ويقاربه(١)

ومن شدة قساوة السجن وظلم السجان، تضرعوا إلى الله (ﷻ) يرجونه انقاذهم مما هم فيه من بلاء وشقاء، وأن ينجيهم مما هم فيه، هكذا يصرح "جحدر الحنفى" فى مناجاة إلى المولى – جل شأنه – يدعوه فيها أن يجيره مما هو خائف منه، فقد ضاقت به الحياة ولم يجد أحدا يلجأ إليه الا المولى (ﷻ) فهو مقيل العثرات، لعله يخلصه مما ينتظره من الظلم والعذاب، يقول:

"إنى دعوتك يإ إله محمـــــد * دعوى فأولها لى استغفـــــار

لتجيرنى من شر ما أنا خائـف * رب البرية ليس مثلك جــار

تقضى ولا يقضى عليــك وإنما * ربى بعلمك تنزل الأقـــدار

كانت منازلنا التى كـــــنا بها * شتى وألف بيننـــــــا دوار

سجن يلاقى أهله من خــوفه * أزلا ويمنع منهـــم زوار(٢)

وإذا كان الصعاليك القدامى قد وصفوا السجون وما فيها من التعذيب والتنكيل، فإن الصعاليك المحدثين قد ساروا على النهج نفسه، فهذا "عبد الحميد الديب" يتعاطف مع أحد المساجين وكان مكفوف البصر عندما أوغل السجانون فى تعذيبه، يقول:

"سجنوا عليك الكون أم سجنوكا * لو أنصفوا فى ظلمهـــم قتلوكا

تخذوا عذابك أو نعيمك شهـــوة * وتقاسموك كأنهـــم خلقوكـــا

---

(١) موسوعة الشعراء الصعاليك – د. حسن جعفر نور الدين – ٢-٢٠٢.

(٢) السابق- ٢-١٥٦.

نم ياضرير ففى عماك ســـــعادة * ألا ترى عيناك مـــــن ظلموكا

ألا ترى أثر الطغاة وجورهـــــم * عرضا ذبيحا أو دمـــــا مسفوكا

ألا ترى الدنيا شخوص روايـــة * ضلت وضلوا شرعة وسلوكا(١)

فالشاعر يرفض الممارسات غير الأخلاقية التى تتم داخل السجون، ويسخر من السلطة الجائرة الطاغية التى تقوم بتعذيب هذا الضرير الذى لا يملك أية أسلحة لمقاومتهم، ولذلك جعل "**الديب**" العمى ميزة وفرت على صاحبها عناء مطالعة وجوه الظالمين العابسة القاسية المخيفة.

أما تجربة السجن عند "**عبد الحميد**" نفسه فإنها تأخذ بعدا آخر مغايرا عن أقرانه من السجناء، فإذا كان السجن عقاباً وعذاباً لمن يحيا حياة مستقرة، ومقيداً للحرية لمن يملك حريته، فإنه عند "**الديب**" مسكنه وأسرته التى حرم منها، لأنه يحيا وسط مجموعة على شاكلته من البائسين، بالإضافة إلى أنه قد دخل السجن نتيجة " الإسراف فى ممارسة حريته الاجتماعية فسقط فى هوة الإدمان، وقبض عليه مع زمرة من المجرمين فى أثناء تناولهم المخدر"(٢)، يقول مصورا تجربة السجن:

"لذت بالسجن بقلب بهـــــج * مرحبا بالضيق دون الفـــــــرج

هاهنا دارى وأهلى وهمـــــا * كل ما أرجو ليوم الحـــــــرج

---

(١) الشاعر "عبد الحميد الديب" حياته وفنه – د. عبد الرحمن عثمان – ص ٥٩ ١.

(٢) السابق– ص٥٦.

ولج السجن برىء طاهـــــــر * وأخ زلاته لم يلـــــــــــج"(١)

فهو لم "يضق كثيرا بمنزله الجديد، بل لعله لم يجد فرقا بين ما حرمه المجتمع منه، وما دفعت به يد العدالة اليه، لأنه وجد فى سجنه غذاء وكساء كانا قد عزا عليه وهو فى عالم الحرية، وكل ما جد من أمره أنه باع حرية التشرد بقيد الاستقرار، فهو الرابح إذاً فى صفقته على كل حال"(٢).

بل لقد شعر بعلو المكانة، ورفعة الشأن بين أقرانه من السجناء، لأنهم – من وجهة نظره – يحتاجون إليه، وهو ما ساعد على تضخيم إحساسه بالذات، فنصب نفسه فى مكانة تضارع مكانة سيدنا "يوسف" (عليه السلام) فى سجن العزيز، وجعل من نفسه مفسر أحلام السجناء، يقول:

"**وإخوان سجن قبحت من وجوههم * هموم توالى دائما وخطـــــوب**

فمنظرهم أضحوكة للباسهـــــم * ومخبرهم فى الحادثات رهيـــــب

لقد كنت فيهم يوسف السجن صالحا * أفسر أحلاما لهم وأصيـــــب(٣)

وإذا كان "**عبد الحميد الديب**" قد تعاطف مع السجين الضرير، فإن "كامل الشناوى" تعاطف مع المجاهدة الجزائرية "**جميلة بوحريد**" التى ألقوا بها فى السجن من أجل إيمانها بقضية وطنها، وبأحقية بلدها فى التحرر، يقول واصفا مظاهر السجن من جدران وسجان وقيود:

"الليل والقضبان والجدران والسجان * والقيـــــــد الحديـــــــد

---

(١) الصعلوك الساخر وشعره المجهول– محمد رضوان– ص٢٧٩.

(٢) الشاعر "عبد الحميد الديب" – عبد الرحمن عثمان– ص٥٦.

(٣) الصعلوك الساخر وشعره المجهول – ص٢٧٩.

وصرير أبواب ووقع خطـــــــــى * وأبواق تدوى من بعيـــــــد

وبعد أن يتعرض لهذه المظاهر المخيفة، يعرض لصورة "**جميلة**" التى ألقوا بها فى أرض الزنزانة وهى عريانة، وتفننوا فى تعذيبها، يقول:

وجميلـــة عـــذراء إنـــسانه

ألقــوا بهــا فى أرض الزنزانــة

عريانـــة والأرض عريانـــه

****

الــرأس محنــى عــلى الــصدر

والــصدر منــتفض بــلا ذعــر

وتكومت فى الركن صــاعقة

محمومــة بالويــل منقــضه

كيــد تلــوت كفهــا غــصبا

وتقوســـــــــــــت

فتحولـــــت قبـــــضه(١)

****

(١) شعر كامل الشناوى – كامل الشناوى – ص١٠٢– دار المعارف – القاهرة –دت.

وفى قصيدة "فى الزنزانة" يعرض "**كامل الشناوى**" لسجن اختيارى أضافته "جميلة" لسجنها من خلال حوار بينها وبين السجانة، حيث ترفض "**جميلة**" الطعام والغطاء من منطلق ثورى، وتقول:

"مادامـــــت أرضى وســـــمائى

نهبـــــا لـــــضراوة أعـــــدائى

.....

فالجوع غذائى والعـرى ردائـى

.....

لا أشرب المـــاء ولا أرتـــوى

وفى بـــــــلادى ظـــــــامىء

مـــــــــــا أرتـــــــــــوى

مـــادام فى الـــدنيا مـــساكين

مـــادام فى دنيـــاى مـــسكين

فالمـــاء فى حلقـــى ســـكين(١)

---

(١) شعر كامل الشناوى – ص١١٠ – دار المعارف.

"**وجميلة**" تحقق أقصى درجات العدالة الاجتماعية وهى فى سجنها، فترفض الماء لأن فى بلدها ظامئا لم يرتو، وليس الظمأ للماء فحسب، ولكنه ظمأ للحرية أيضا، فاحتياج الإنسان لها على مستوى احتياجه للماء ولا يستطيع أن يحيا دونها.

وفى قصيدة "العذاب" يبين الشاعر قسوة العذاب وشدته الذين وقعا على "جميلة" لإرغامها على أن تبوح باسم قائد الفدائيين الذى تسلمت منه المنشورات ولكنها ترفض وتناجى الله (ﷻ) قائلة:

وما أنا يارب إن لـــم أثر * وأنقم على الزمن المجرم

لقد جلد الشعب جلاده * ونكل بالفكر لم يرحم(١)

"فجميلة" لا يعنيها عذابها فى سجنها، ولكن يعنيها عذاب شعب بأكمله يقاسى ألما جسديا من جراء التعذيب، وألما ذهنيا من جراء التخريب الفكرى.

والشاعر العراقى "أحمد الصافى النجفى ١٨٩٧-١٩٧٧م"، يرى فى السجن جنة الخلد، لأن فيه خدمة الوطن والتضحية فى سبيله، يقول:

"حبست وضاق الحبس بى حين زج بى * إلى غرقة ظلماء محكمة الســـــد

فقلت علام الحبس لا أنا ســـارق * ولا آثم عمدا ولا دونما عمـــــد

ولما رأيت الذنب خدمة موطنى * حلا السجن حتى خلته جنة الخلد(٢)

---

(١) شعر كامل الشناوى – ص ١٠٨.

(٢) موسوعة الشعراء الصعاليك – د. حسن جعفر نور الدين-٢- ٤٧٤.

تلك هى الوطنية المخلصة، والحس القومى الرائع، أن يشعر العربى أينما كان بأنه ينتمى إلى أمة واحدة لاتفرق بينها المحن بل توحدها وتشد من أزرها فهذا العراقى يسجن فى لبنان فيحلو له السجن ويرحب به من أجل وطنه.

والشاعر الأردنى "**مصطفى وهبى** التل: ١٨٩٩- ١٩٤٩م"، تعاطف مع إخوانه الصعاليك" عندما كان مأمورا للأجراء ورفض تنفيذ إجراءات السجن علي الناس البسطاء لعدم سداد الديون التى عليهم للمرابين فى ذلك الوقت، وقال تحت عنوان "إخوانى الصعاليك":

قولوا لعيود عل القول يشفينى * إن المرابين إخوان الشياطـــين

وإنهم لأعز الله طغمتهـــــم * قد اطلعوا رغم تنديدى بهم دينى

فذا يقول غريمى كيف تهملـــه؟ * وذاك يصرخ لم تحبســـه مديونى؟

كأنما الناس عبدان لدر همهـــم * وتحت إمرتهم نـــــص القوانين

****

يارهط "شيلوخ" من يأخذ بناصركم * يجن على الحق والأخلاق والديـــن

ومن يستهل أمرا فيه مصلحة لكم * فملعون حقا وابن ملعـــــــون

فما كظلمكم ظلم الفرنج ولا كفتكم * بالورى فتك الطواعـــــــين

أأسجن الناس إرضاء لخاطركم * وخشية العزل من ذا المنصب الدون؟

أم رغبة فى تقاضى راتبا ضربوا * نقوده من دماء فى شرايينـــــى؟

هذى الوظيفة إن كانت وجائبها * وقفا عليكم فعنها الله يغنينى

إن الصعاليك إخوانى وإن لهم * حقا به لو شعرتم لم تلومونى
فالعزل والنفى حبا بالقيام به * أسمى بعينى من نصبى وتعيينى
ياشر من منيت هذى البلاد بهم * إيذاؤكم فقراء الناس يؤذينـــى
إن الصعاليك مثلى مفلسون وهم * لمثل هذا الزمان الزفت خبونـى

****

والأمر لو كان لى لم تفرحوا أبدا من أجل دين لكم يوما بمسجون
فبلطوا البحر غيظا من معاملتى وبالجحيم إن استطعتم فزجونى
فما أنا راجع عن كيد طغمتكم حفظا لحق الطغارى والمساكين(١)

فتحقق له ماأراد وتمنى، فقد قال قصيدته السالفة الذكر:

فالعزل والنفى حبا بالقيام به * أسمى بعينى من نصبى وتعيينى

فقد عزل من وظيفته وأودع سجن "المحطة" فى عمان فى نهاية عام ١٩٤٢م، وصار ينتقل بين نفى مر، وسجن قاس، بلا حول من سلطة، ولا طول من ذات، وفى ذلك يقول:

"فمن سجن إلى منفى * ومن منفى إلى غربـــــه
ومـــــن كـــــر إلى فر * ومن بلوى إلى رهبـــــه

(١) شعر السجون فى الأدب العربى الحديث والمعاصر – د. سالم معروف المعوش– ص٦٥٩–دار النهضة العربية – بيروت– الأولى–٢٠٠٣م.

فبى من كل معركة أثرت عجاجها ندبـــــه([1])

وهكذا تشابه شعر السجن عند الصعاليك القدامى والمحدثين، فقد وصف كل منهما قسوة السجن وظلم السجان وما يعانيه كل منهما داخل السجن من التعذيب والتنكيل والقيد ليلا ونهارا.

وإذا كان الصعلوك القديم قد سجن لأنه خرج على نظام الدولة وسلك سبيل الفساد فى الأرض، فإن الصعلوك الحديث قد سجن فى سبيل وطنيته المخلصة، وحسه القومى الرائع، ومطالبته بالاستقلال عن المحتلين والغاصبين، وزاد الصعلوك الحديث على شعر السجن تعاطفهم مع بعضهم كما فعل "مصطفى وهبى التل" عندما تعاطف مع إخوانه الصعاليك، ورفض سجنهم لعدم قدرتهم على سداد الديون المستحقة عليهم.

(١) شعر السجون فى الأدب العربى الحديث والمعاصر – د. سالم معروف المعوش– ص٦٦٢.

المبحث الخامس

شعر النقد الاجتماعى

كان للنقد الاجتماعى ورصد أحوال المجتمع، مكان كبير فى شعر الصعاليك، وشعر النقد الاجتماعى هو: الشعر الذى يرصد الظواهر الاجتماعية البغيضة والدخيلة والحسنة فى المجتمع، والأمراض الأخلاقية، وينادى بالثورة عليها، ويدعو إلى تطهير المجتمع منها، وتحسين وإبراز المحاسن، ليتدارك المجتمع ما أصابه وأصاب أفراده حتى يعود إلى الشيم الأصيلة، وما يطلبه الإسلام من سلوكيات حميدة.

ولأن الصعلوك مرتبط بأحداث وطنه، فإنه يتصدى لنقد تلك الأحداث والأوضاع مقتنعا بأنه يمارس دوره بين الناس، لأنه يملك القوى الفكرية وشجاعة المجاهرة بالرأى، وهو ما لا يتوافر لكثيرين غيره، وخاصة أولئك الذين يداهنون السلطة، ويحبون أن يحيوا تحت ظلها.

وغالبا ما ينشط النقد مع الأحداث، ويصير سلاحا هادئا "يستخدمه الشعب فينفس عما يعانيه، ويحقق به حالة من النقد.....لنظام الحكم، وللفساد الاجتماعى من شتى جوانبه"(١).

وكان هذا النقد سلاحا للصعاليك شهروه فى وجه الفساد الذى انتشر فى مجتمعهم، فشمل الأخلاق والسياسة والحياة الاجتماعية فى كثير من جوانبها.

---

(١) مع الظرفاء العرب- د. عبد الصبور مرزوق- ص١٧٢- دار النهضة العربية- القاهرة - الأولى-١٩٦٢م.

وتأتى الاضطرابات السياسية فى مقدمة الأحداث التى انفعلوا بها وحاولوا التعبير عنها، وذلك لأن الصعلوك يتأثر بالسياسة كما يتأثر بغيرها من سائر مقومات الحياة.

والصعلوك السياسى ليس وليد العصر الحديث، فقد نتج عن الظروف السياسية فى العصر الأموى، نمط جديد من الصعاليك هم الصعاليك السياسيون، والصعلوك السياسى من "القبائل التى أقصاها بنو أمية عن الحكم، فدفعته عصبته القبلية إلى التمرد على سلطة الحكم، فهو صعلوك خليع متمرد على القبيلة والدولة معا، أو هو صعلوك طموح محب للرئاسة مثل "عبيد الله بن الحر الجعفى" الذى جمع صعاليكه وكون منهم حزبا للإغارة على الدولة وقض مضاجعها كلما حانت الفرصة، وكان يهدف إلى إقامة دولة تقوم على مبادىء الصعلكة المتمثلة فى تحقيق هدف واحد هو: العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس"(١)، ولذا نراه يفتخر بكرم أصله وقوة عزيمته، ويذكر توزيع ما يغنم بين أصحابه من الصعاليك، وذلك فى قوله:

"أنا الحر وابن الحر يحمل شكتى * طوال الهوادى مشرفات الحواتك

فمن يك أمسى الزعفران خلوقه * فإن خلوقى مستشار السنابـــك

ستعلم إن جاريتنى يابن مـــالك * إلى أينا مأوى رجال الصعـــالك

إذا ما غنمنا مغنما كان قســـمة * ولم نتبع رأى الشحيح المتـــارك

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الأموى – د. حسين عطوان–ص١١٧– دار المعارف– القاهرة –١٩٧٠م

أقول لهم كيلوا بكمة بعضكـــم * ولا تجعلونى فى الندى كابن مالك"(١)

وقال "**مالك بن الريب**" ينقد سياسة بنى أمية الجائرة:

"أحقا على السلطان أما الذى له * فيعطى وأما ما يراد فيمنـــــــع

إذا ما جعلت الرمل بينى وبينـــه * وأعرض سهـــــب بين يبرين بلقع

من الأدمى لا يستحم بها القطا * تكل الرياح دونه فتقطـــــــــع

فشأنكم يا آل مروان فاطلبـــــوا * سقاطى فما فيه لباغيه مطمـــــع

وما أنا كالغير المقيم لأهلـــــه * على القيد فى بحبوحة الضيم يرتع

ولولا رسول الله إن كان منكـــم * تبين من بالنصف يرضى ويقنع(٢)

وامتد هذا النمط من الصعاليك إلى العصر الحديث، لنراهم يعيشون أحداث وطنهم، وينتقدون الأوضاع السياسية والاجتماعية وينفعلون بها.

ومن النماذج الدالة على ذلك ما يطالعنا به "**نزار قبانى**" وهو ينتقد السلطة التى تستعمل القهر والطغيان، "**فنزار**" لا يرى حلا للمجتمع العربى إلا فى توفير الحرية، يقول:

"ياســـــــــيدى الـــــــــسلطان

---

(١) الحماسة الشجرية – لأبى السعادات هبة الله بن على بن محمد الحسنى العلوى – ت- عبد المعين الملوجى – أسماء الحمصى -١-١٠٥- منشورات وزارة الثقافة – دمشق- ١٩٧٠م.

(٢) كتاب الأغانى- أبو الفرج الأصفهانى – ٢٢-٢٩١- دار الكتب المصرية –القاهرة- دت.

لقـــد خـــسرت الحـــرب مـــرتين

لأن نـــصف شـــعبنا لـــيس لـــه لـــسان

ما قيمة الـشعب الـذى لـيس لـه لـسان ؟

لأن نصف شعبنا محاصر كالنمل والجرذان

فى داخـــــــــل الجـــــــــدران

لـــــو أحـــــد يمنحنـــــى الأمـــــان

مـــــــن عـــــــسكر الـــــــسلطان

قلـــت لـــه: ياحـــضرة الـــسلطان

لقـــد خـــسرت الحـــرب مـــرتين

لأنـــك انفـــصلت عـــن قـــضية الإنـــسان

فالشاعر لا يملك أمان الكلمة، وتأتى روعة استخدام الأداة "لو" فى هذا المكان، والتى تفيد امتناع قول الشاعر ما يريد لا متناع الأمان، ثم الاستفهام فى البيت الرابع الذى يوضح بلا شك: أن الفرد المهان لا يمكن أن يجلب نصرا للأمة، ثم يصور حالة السلطان المستبد وما يعتريه من القهر والطغيان فيقول:

لـــــو أحـــــد يمنحنـــــى الأمـــــان

لـــو كنـــت أســـتطيع أن أقابـــل الـــسلطان

قلـــــــــــــــت لـــــــــــــــه

ياســـــــــــيدى الـــــــــــسلطان

كلابـــــك المفترســـــات مزقـــــت ردائـــــى

ومخـــــــــــبروك دائـــــــــما ورائـــــــــى

عيـــــــــــــونهم ورائـــــــــــــى

أنـــــــــــــوفهم ورائـــــــــــــى

يـــــــــــــستجوبون زوجتـــــــــــــى

أقـــــــــــــدامهم ورائـــــــــــــى

ويكتبـــــون عنـــــدهم أســـــماء أصـــــدقائى

ياحـــــــــــــضرة الـــــــــــــسلطان

لأنـــــى اقتربـــــت مـــــن أســـــوارك الـــــصماء

لأننى حاولت أن أكشف عن حزنى وعن بلائى

ضربـــــــــــــت بالحـــــــــــــذاء

أرغمنـــــى جنـــــدك أن آكـــــل مـــــن حـــــذائى(١)

(١) الأعمال السياسية الكاملة – ٢-٩٢-٩٣- بيروت – الثالثة – ١٩٨٣م.

وسار "**الأسمر**" على دربه، فانتقد ما يدور فى "مصر" من تغيير فى أحكام الشريعة الإسلامية، وسطوة الأغنياء على الفقراء، فقال تحت عنوان "مصر والتشريع الإسلامى":

"أين حكم الشريعة الغراء؟ * وقوانين أحكم الحكمـــــــاء؟

أين أحكامنا التـــــى أنزل الله * علينا من عرشه والسمـــــــاء؟

قام فى المسلمين شرع دخيل * ومضى شرع خاتم الأنبيـــــاء

ويك يا مصر أى حكم أرى اليو * م، وفيم القضاء غير القضـــــاء

كل ما حرم الإله حـــــــلال * فى نواحيك ياله من شقـــــــاء

ثم يا مصر أين ما قالـــــه الله ؟ * وأين الزكاة للفقـــــــــراء؟

أيها الأغنيـــــــاء إن لم تؤدوا * ما عليكم فالويل للأغنيـــــاء

لا رعى الله ما جمعتم إذا لـــــم * تك فيه الحياة للأحيـــــــــاء

صولة المال صولة الذئـــــــب * أن لاقى الجماهير وهى قطعان شاء

هو من يومه يعيش على الظلـــم * ويحيا على امتصاص الدمـــــاء

فاجعلوه رسول عطف وبـــــر * ودواء يشفى مـــــــن الأدواء

واحذروا فتنة إذا هى قامـــــت * لفت الظالمين بالأبريـــــــاء(١)

---

(١) الديوان- ص٤٦٧.

وكان لتناحر الأحزاب السياسية فيما بينها، وانصرافهم عن شئون "مصر" فى النصف الأول من القرن العشرين بغية الوصول إلى السلطة، من الأحداث التى أثارت انتباه الشعراء فى ذلك الوقت وخاصة الصعاليك منهم.

يقول "**على محمود طه**" مشيرا إلى هذا الخلاف:

أحقا ما يقال شيوخ جيـــل * على أحقادهم فيه أكبـــوا؟

وكانوا الأمس أرسخ من جبال * إذا مازلزلت قمم وهضـــب

فما لهمُ وهت منهم حلـــوم * لها بيد الهوى دفع وجـــذب

أأ رحام مقطعـــــة وأرض * تعادى فوقها أهل وصحـــب

وأسواق تباع بها وتشـــرى * ضمائرهن للأهواء نهـــب

يطوف بها النفاق وفى يديـــه * صحائف أفعمت زورا وكتب

يكاد الليل أن ينسى دجـــاه * إذا نشرت ويأخذ منه رعب(١)

فالشاعر ينعى على الزعماء ترك قيادهم للأحقاد حتى تخلوا عن عقولهم ورزانتهم، واستسلموا لأهوائهم وأغراضهم، فانفصمت عرى تماسكهم، وشاع بينهم النفاق الذى أعماهم وأفقدهم ضمائرهم، فصارت صحائفهم أحلك من ليل بهيم.

"والشاعر يصور واقعا مرا فى شىء من التأنيب والتقريع ينبع من المفارقة بين واقع الزعماء وما يجب أن يكونوا عليه، ودفعه إلى ذلك التقريع أنه يرى التناحر الحزبى على كراسى الحكم، وانقسام الشعب المنطوى تحت لواء

(١) الديوان- ص ٣٨٩ - دار العودة – بيروت – ١٩٨٦م، من قصيدة بعنوان "مصر".

الحزبية إلى فئات متخاصمة، قد بعثر الجهود التى كان يمكن أن تتجمع لتندفع نحو هدفها الكبير، ومن هنا كانت الوحدة – وحدة الأحزاب بخلافاتها المغرضة ووحدة الشعب باتجاهاتها المنقسمة – أمنية ثالثة فى سلسلة أمانيه، وعلى الرغم من أنه كان يقف بشعره وشعوره إلى جانب حزب الأغلبية الشعبية فى ذلك الحين فقد كان يرجو لخلافات الأحزاب أن تزول، ولأيدى زعمائها أن تتصافح، حتى يستطيع الشعب أن يلتف حول مفهوم موحد للنضال من جهة، وأن يفرغ من ناحية أخرى كل طاقاته المهدرة فى معركة جماعية موحدة، ضد أعداء الحرية وتطور الشعب"(١).

وبعد الحرب العالمية الأولى، عاشت "مصر" حقبة من عدم الاستقرار تمثل فى اختفاء السلع واحتكارها مما ترتب عليه غلاء الأسعار، عندئذ انبرى الصعلوك ليرصد ما يعكر صفو حياة الناس، فتناول "**حافظ إبراهيم**" مشكلة غلاء الأسعار موجها حديثه إلى أصحاب النفوذ والسلطان قائلا:

"أيها المصلحون ضاق بنا العيـــ * ش ولم تحسنوا عليه القيامـــــا

عزت السلعة الذليلـــة حتـــى * بات مسح الحذاء خطبا جسامـــا

وغدا القوت فى يد الناس كاليا * قوت حتى نوى الفقير الصيامـــا

يقطع اليوم طاويا ولديـــــــه * دون ريح القتار ريح الخزامـــى

ويخال الرغيف فى البعد بـــدرا * ويظن اللحوم صيدا حرامـــــا

---

(١) على محمود طه " الشاعر والإنسان"– أنور المعداوى – ص٩٥– الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.

أيها النيل كيف نمسى عطاشـــا * فى بلاد رويت فيها الأنامـــــا

يرد الواغل على الغريب فيروى * وبنوك الكرام تشكو الأوامــا"(١)

فنقد "**حافظ**" صرخة شعبية تلتمس السبل إلى آذان المسئولين لعلهم يجدوا حلا لاختفاء السلع أو نقصها ومنها رغيف العيش.

أما "**عبد الحميد الديب**" فيتناول المشكلة نفسها، ولكن بعد هذا الوقت بما يزيد على عشرين عاما، وبالتحديد فى وزارة "**حسين سرى باشا**" عام ١٩٤١م، فحين رأى لهفة الناس على الخبز، ولمس حزنهم على نقص وزنه، انتفض انتفاضة شاعرية جعلت من لهفتهم وجزعهم صورة حية تكاد تلمسها بيديك، إذ يقول:

"صغرالرغيف كأنما هو قطعـــة * من قلب تاجره وجلد البائـــع

هل صار وهما أم خيالا إنـــــه * قد عاد غير مؤمل أو نافـــــع

لو كان سما ما تخـــــرم آكلا * أو كان ذا أثر بوجه البائـــــع

قد كان شيخا للطعام فما لـــــه * قد صار شبه وليد شهر سابـــع

القمح أوفر غلة فى أرضكـــــم * والأرض لم تنكب بمحل فاجـــع

والنيل ما زال الوفى بعهـــــده * يجرى بسلسال وفير هامـــــع

ياللرغيف وياالهول ضمـــــوره * قد صار أمنية لبطن الشابـــــع

جوعوا تصحوا واذكروها حكمة * فالمجد لم يكتب لغير الجائـــع"(٢)

---

(١) الديوان – ص٣١٦، والواغل، المتطفل ويقصد به المستعمر، والأوام، شدة العطش.

(٢) الأبيات غير موجودة فى الديوان، ولكنها موجودة فى كتاب "الشاعر عبد الحميد الديب" حياته وفنه – د. عبد الرحمن عثمان – ص٢٨.

"**فالديب**" على ثقة من وفرة الأسباب التى تتيح إنتاج الخبز، من قمح وفير، وماء غزير، ومع ذلك صغر حجم الرغيف بشكل ملحوظ، ونقص حجمه المعتاد شأنه شأن الجنين الذى يولد قبل تمام مدة الحمل الطبيعة وهى تسعة أشهر، وفى نقده، يلمز التاجر الذى أنقص حجم الرغيف، كما أن النقد مغلف بالسخرية المنبعثة من التناقض بين وفرة أسباب إنتاج الخبز وبين صغر حجم الرغيف، ولم ينس "**الديب**" نفسه، فذكر بحاله فى الشطر الثانى من البيت الأخير: عندما قرر أن المجد للجائعين وهو منهم.

والفرق بين نقد "**الديب**" ونقد "**حافظ**".: "أن حافظا يغلب على نقده الخطابية التى تقرر واقعا ولا تعكس شعورا صادقا للأزمة، لأنه اكتفى بأن عرض غلاء الأسعار وارتفاع ثمن الأقوات الشعبية، ولم يكن فيها مجليا لحاجته إلى شعور من يضيق بشراء تلك السلع.....وتصوير الرغيف على أنه بدر فى البعد عامى لا يحتاج إلى خيال شاعر، والصيد الحرام تنصرف عنه النفس ولا تشتهيه"([1]).

أما "الديب" فجاء "نقده منطقيا يتساوق مع روح الإقناع، فلا أقدر من جائع يصور مأساة الرغيف لأنه يصور مأساته الشخصية من خلال مأساة الشعب المصرى آنذاك، فى بيئة تلهث فقرا وتتنفس مرضا وحرمانا، ومن ثم كان لسانها الناطق فى الإعراب عن مواجعها، وكان ترجمانها الأمين فى الإفصاح عن أحزانها التى لاتنتهى"([2]).

---

(١) الأبيات غير موجودة فى الديوان، ولكنها موجودة فى كتاب "الشاعر عبد الحميد الديب" حياته وفنه – د. عبد الرحمن عثمان – ص٢٦٩.

(٢) الشاعر "عبد الحميد الديب" حياته وفنه – د. عبد الرحمن عثمان – ص٢٨.

ومن العادات الاجتماعية السيئة التى تصدى الصعلوك الحديث لنقدها:

"النفاق"، فالصعلوك ينعى على فريق من الناس اتخاذهم من "النفاق" وسيلة لتحقيق مآربهم، وتلك نظرة مثالية من الصعاليك، لأن "النفاق" لون من أخلاقيات النفس البشرية الضعيفة، وتكمن المشكلة الحقيقية عندما يتفشى بين الناس، ومن هذا المنطلق يستشعر "**حسن جاد**" دوره فى التنبيه على خطورة "النفاق" على الناس جميعا، فيقول:

"وما الناس إلا كا لذئاب طبائعا * تروح وتغدو فى الفلا وتصـــــول

يغرك معسول الكلام وتحتـــــــه * لعاب من السم الزعاف بديل"(١)

فيرى أن "النفاق" يهبط بالإنسان إلى مرتبة الذئب الخائن، الذى يتحين الفرصة للانقضاض على فريسته.

ويتناول "**محمود أبو الوفا**" العادة نفسها، ويرى فيها آفة من آفات المجتمع، وعاملا من عوامل الفساد الاجتماعى، وذلك فى قوله:

"ضمان أن تعيش بمصر عيشا * رغيدا لاتنغصه الليالـــــــــى

فنافق ما استطعت بها نفاقــا * وعش ذنبا لأصحاب المعالى"(٢)

وهو بذلك يقرر أن المنافق ليس له شخصية، فهو يفقد كيانه وهويته ويدور فى فلك أصحاب السلطة تابعا لهم، وهو ما يحقق – من وجهة نظر الشاعر – حياة هانئة بعيدة عن المنغصات.

---

(١) ديوان زورق الشجون– ص٨٢.

(٢) دووين شعره ودراسات بأقلام معاصريه – ص١١٦.

وهكذا كان الصعاليك- قدامى ومحدثين – فى نقدهم، يطرقون مجالات مختلفة، ولا يقفون مكتوفى الأيدى أمام ظروف المجتمع، ولكنهم ينقدون تلك الظروف بأخلاقياتها وعاداتها، وسلاحهم فى ذلك شعرهم، لعلهم يستطيعون إقامة ميزان العدل الاجتماعى، وإصلاح ما أفسده الآخرون.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الشيقة مع الشعراء الصعاليك القدامى والمحدثين، نرى لزاما علينا – كما جرت بذلك سنة البحث – أن نسجل أهم النتائج التى توصل إليها البحث وهى:

أولا: أبان البحث عن تأثر الصعاليك المحدثين بأساتذتهم القدامى، وزاد المحدثون تطور الزمن والبيئة.

ثانيا: جاء شعرهم صورة من حياتهم فى الصعلكة بكل مافى هذه الحياة من آلام الفقر وآثاره، والهموم والشعور بالعزلة والانطواء.

ثالثا: كان الفقر عاملا مشتركا بين الصعاليك القدامى والمحدثين، ولكنه دفع الصعاليك القدامى إلى السلب والنهب، وأدى بالمحدثين إلى لعن الزمن، وسب الأغنياء والحقد عليهم.

رابعا: عدم الرضا عن الواقع الذى يعيشه كل منهما.

خامسا: وصف الصعاليك السجون وما تعرضوا له من القهر والتعذيب فيها، كما وصفوا أحوال مخالطيهم.

سادسا: ارتبط الصعلوك بأحداث وطنه، وتصدى لنقد الأوضاع الجائرة مؤديا دوره بين الناس، لأنه يملك القوى الفكرية وشجاعة المجاهرة بالرأى، وهو ما لا يتوافر لغيره وخاصة الذين يداهنون السلطة.

"**وختاما**": فقد بذلت جهدى وطاقتى فى هذا البحث المتواضع، فإن وفقت لما هدفت إليه، فبفضل الله تعالى علىَّ وحسن توفيقه، وإن كانت الأخرى فحسبى أنى لم أدخر جهدا ولا وقتا فى سبيل إنجازه.

"وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب"

بسم الله الرحمن الرحيم

المراجع و المصادر

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: المصادر والمراجع.

١- الأعمال السياسية الكاملة – نزار قبانى – بيروت – الثالثة – ١٩٨٣م.

٢- الأغانى – أبو الفرج الأصفهانى – دار الكتب المصرية – القاهرة- دت.

٣- الحماسة الشجرية – لأبى السعادات هبة الله بن على بن محمدالحسنى العلوى – تحقيق – عبد المعين الملوحى – أسماء الحصنى – منشورات وزارة الثقافة – دمشق-١٩٧٠م.

٤- الحيوان- الجاحظ – دار صعب – بيروت- الثانية-١٩٨٢م.

٥- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب – عبد القادر بن عمر البغدادى – تحقيق وشرح – عبد السلام هارون – نشر – مكتبة الخانجى – القاهرة – الرابعة – ١٩٩٧م.

٦- ديوان أغنيات الحب – ابراهيم نجا – دار الكتاب العربى – ١٩٦٨م.

٧- ديوان ألحان الخلود – د. زكى مبارك- دار الكتاب العربى – ١٩٤٧م.

٨- ديوان أيام من عمرى – إبراهيم نجا – دار المعرفة – القاهرة- ١٩٦٢م.

٩- ديوان بشار بن برد – شرح – محمد الطاهر – تعليق – محمد رفعت فتح الله – لجنة التأليف والترجمة والنشر – ١٩٥٠م.

١٠- ديوان تأبط شرا – ترجمة وتحقيق – عبد الرحمن المصطاوى – نشر دار المعرفة للطباعة والنشر – الثانية -٢٠٠٦م.

١١- ديوان تغريدات الصباح – محمد الأسمر- دار المعارف- القاهرة – ١٩٤٦م.
١٢- ديوان حافظ إبراهيم – ضبطه وصححه وشرحه ورتبه-أحمد أمين وآخرون- الهيئة المصرية العامة للكتاب- الثانية -١٩٨٠م.
١٣- ديوان زورق الشجون- حسن جاد- المطبعة المصرية الأهلية الحديثة – القاهرة – ١٩٣٥م.
١٤- ديوان السليك بن السلكة – قدم له وشرحه – سعدى الضناوى – دار الكتاب العربى -١٩٩٤م.
١٥- ديوان صالح الشرنوبى -تقديم – عبد الحى دياب – دار الكتاب العربى – (دت).
١٦- ديوان طرفة بن العبد- دار صادر – بيروت- (دت).
١٧- ديوانا عروة بن الورد والسموأل – دار صادر – بيروت – دت.
١٨- ديوان على محمود طه – دار العودة – بيروت- ١٩٨٦م.
١٩- ديوان محمد الأسمر- نشر – دار إحياء الكتب العربية "عيسى الحلبى"- القاهرة – ١٩٥١م.
٢٠- ديوان محمد مصطفى حمام – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٤م.
٢١- ديوان محمود أبى الوفا "دوواوين شعره ودراسات بأقلام معاصريه" – الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٧٧م.
٢٢- ديوان محمود سامى البارودى – تحقيق- على الجارم- محمد شفيق معروف- دار المعارف – القاهرة – دت.
٢٣- الشاعر عبد الحميد الديب "حياته وفنه" – د. عبد الرحمن عثمان – دار المعارف- ١٩٦٨م.

٢٤- شعر السجون فى الأدب العربى الحديث والمعاصر – د. سالم معروف المعوش – دار النهضة العربية – بيروت- الأولى-٢٠٠٣م.
٢٥- شعر الشنفرى الأزدى – لأبى فيد مؤرج بن عمرو السدوسى – تحقيق- د. على ناصر غالب- مراجعة د – عبد العزيز ناصر المانع – دار اليمامة للبحث والطباعة – الأولى – ١٩٩٨م.
٢٦- شعر الصعاليك منهجه وخصائصه الفنية – د. عبد الحليم حفنى – الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٧٩م.
٢٧- شعر كامل الشناوى – دار المعارف- القاهرة – دت.
٢٨- الشعراء الصعاليك فى العصر الأموى- د. حسين عطوان- دار المعارف-١٩٧٠م.
٢٩- الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى – د. يوسف خليف- دار المعارف- الرابعة- ١٩٨٦م.
٣٠- الشعر والشعراء- ابن قتيبة الدينورى- مطبعة الحلبى – القاهرة.
٣١- الشهب اللامعة فى السياسة النافعة – لأبى القاسم بن رضوان المالقى – تحقيق- د. على سامى النشار- دار الثقافة – المغرب- الأولى – ١٩٨٤م.
٣٢- الصعلوك الساخر وشعره المجهول "عبد الحميد الديب" – محمد رضوان- تقديم – فاروق شوشة – دار الكتاب العربى – الأولى – ٢٠٠٥م.
٣٣- علم النفس العام – د. عبد الرحمن العيسوى – دار المعرفة الجامعية – ٢٠٠٠م.
٣٤- على محمود طه "الشاعر والإنسان" – أنور المعداوى- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٨٦م.

٣٥- فلاسفة وصعاليك – محمد فهمى عبد اللطيف- الدار القومية للطباعة والنشر- دت.
٣٦- لسان العرب – ابن منظور- دار المعارف- القاهرة – دت.
٣٧- معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب – مجدى وهبة- بيروت – الثانية- ١٩٨٤م.
٣٨- مع الظرفاء العرب- د. عبد الصبور مرزوق – دار النهضة العربية – القاهرة – الأولى -١٩٦٢م.
٣٩- موسوعةالشعراء الصعاليك من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث – د. حسن جعفر نور الدين – دار رشاد برس للطباعة والنشر – بيروت- ٢٠٠٢م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١١٧
التمهيد	١٢١
مفهوم الصعلكة	١٢٣
مفهوم الصعلكة فى العصر الحديث	١٢٥
وجوه الاتفاق والاختلاف بينهما	١٢٧
أولا: وجوه الاتفاق	١٢٧
ثانيا: وجوه الاختلاف	١٢٧
المبحث الأول: وصف الديار	١٢٩
المبحث الثانى: الاغتراب	١٣٣
المبحث الثالث: الشكوى	١٤٢
المبحث الرابع: وصف السجون و شعر السجون	١٥٤
المبحث الخامس: شعر النقد الاجتماعى	١٦٧
الخاتمة	١٧٩
المصادر والمراجع	١٨٠
فهرس الموضوعات	١٨٤